

## أوروبا عصر النهضة ترقص على أنغام عربية

«تغنم روح الإنسان عدة منافع من الغناء..  
منها السكينة التي تهبط عليها في ساعة  
المهوم والآلام»

الحسين بن زبلة المتوفى ١٠٤٨هـ في كتابه «الكافي في الموسيقى».

يقال إن الرصانة ليست إلا نقصا في المزاج غالبا!  
وإذا اتخذنا من الشعر الأندلسي، وهو فن وثيقة على حياة أهله،  
وجدنا الجانب الأكبر وقفا على وصف مغامراتهم العاطفية البهجة،  
صحبة كأس لا تفرغ، وموسيقا لا تتوقف، ورقص يأخذ بالعقول  
ويسحر الأبواب، وكلها شواهد كافية على ارتشافهم الحياة حتى آخر  
قطرة!

ولم يكن المسلمون حين هبطوا إسبانيا فاتحين في مطلع القرن  
الثامن الميلادي يحملون معهم غير موسيقا بدائية، وغناء لقا يتطور،  
وهما متلازمان، فلم تكن الموسيقى، وحتى قرون بعد، قد استقلت

بنفسها أداء وتعبيرا، وكلمة مغن تعنى موسيقيا أيضا، والعكس صحيح، وأحيانا كانت تعرف الموسيقى بأنها الطرب، ويدعى الموسيقى مطربا.

وهذه الموسيقى العربية كانت بدائية، وليدة الخداء، وغناء الركبان، وآهات المكرويين ومن يعانون، ويستخدمها العرافون والسحرة، وفي ممارسة طقوس الحج الجاهلية حين يهلل الحجاج أو يلبون أو يرتلون.. ولكن ذلك كان قليلا ومحدودا، لأن العربي البدوي لم يكن يعنى بغير «الحب والخمر والميسر والصيد.. ولذات الغناء، والمخاطرة، والتعبير الموجز البليغ الملمح عن اللباقة والحكمة، ويستجيد هذه الأمور ولا يرى بعدها غير القبر».

وكانت النساء تشارك فى هذه الموسيقى البدائية فى الأفراح العائلية أو القبلية، فى السلم والحرب، وهى أشياء استمرت حتى عصر النبوة، فقد تضمن الاحتفال بتزويج النبى من خديجة فرحا فيه غناء ورقص وموسيقا، وحين سار المكيون إلى معركة بدر عام ٦٢٤م. أخذوا معهم «جميع آلات اللهو، والقيان يعزفن على الآلات، ويغنين على كل ماء حيث يعرسون».

وعندما سمع المكيون باقتراب الرسول أشاروا على رئيسهم بالانسحاب بدل المخاطرة فأجاب: «والله لانرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليه ثلاثا، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف عليه القيان».

وكانت هند بنت عتبة ، وزوج أبي سفيان زعيم القرشيين ، على رأس النسوة اللاتي صحبن الجيش القرشى فى معركة أحد ، ينشدن الأغاني الحماسية ، ويرثين قتلى بدر ، ويضربن الدفوف ، وعندما حى وطيس المعركة كن لازلن يغبين ويعزفن .

وكانت المراكز الأسبق تحضرا فى أطراف الجزيرة الشمالية والشرقية تعرف ألوانا أكثر تقدما من الموسيقى ، بتأثيرات فارسية أو بيزنطية ، فكان فى بلاط القساسنة على أيام جيلة بن الأيهم ، فيما يحكى حسان بن ثابت الصحابى شاعر الرسول ، عشر قيان : «خمس روميات يغبين بالرومية ، وخمسا يغبين غناء أهل الحيرة» وكان يفتد إليه من يغبنيه من العرب من مكة وغيرها .

وكان بين هؤلاء المغنيات الأحراز الهاويات ، والقيان المحترفات ، وهؤلاء كن فى منزل أى عربى ذى قيمة اجتماعية فى مكة ، ويثرب ، والحيرة ، وفارس ، من أصول عربية أو فارسية أو أغريقية ، يغبين بلغتهن أحيانا ، وقصائد عربية أحيانا أخرى ، ومن المحتمل أن التلحين كان أجنبيا .

غير أن من الحق أيضا أن تقرر أن «هذه الموسيقى الجاهلية لم تكن أكثر من ترتم ساذج يتنوعه المغنى أو المغنية أو يجمّله ، تبعا لذوقه وانفعاله ، أو ما يريده من تأثير .. ويطوله فى مقطع أو كلمة أو شطر بيت ، بصورة تجعل غناء المقطوعة ذات البيتين أو الثلاثة يمكن أن يستغرق ساعات .. وميزة المغنى فى جمال صوته وخفته وذبذبته ، والشعور الذى يجعل الصوت مستمرا أو متموجا» .

وكل مغن يغنى فى نعمة واحدة أو مقام، إذ لم يعرفوا تأليف اللحون المتفرقة، أى الهرموني.. كما نعرفها نحن.. والنوع الوحيد من التأليف المعروف عندهم هو الأنغام التى تبعثها آلات القرع المختلفة من الطبل والدف والقضيب.. وتشكيل اللحن بالزخارف من التموجات والدورات التى سموها الزوائد.

ولكن العرب وهم يجتاحون العالم المتحضر على أيامهم لم يبقوا من الحضارات التى وقعوا عليها موقفا معاديا، وإنما كانوا طلاب علم نهمين، فتمثلوا كل شىء جميل فيها، وطوعوه لحياتهم، وبدأت الموسيقى العربية الأولى تتلقى إضافات جديدة وعميقة، وفارسية وبيزنطية.. حتى بلغت أوجها رقا على يد إسحاق الموصلى، فى عصر هارون الرشيد.



لم يحمل العرب معهم حين هبطوا إسبانيا فاتحين للمرة الأولى فى مطلع القرن الثامن الميلادى موسيقا متقدمة، ولم يجيدوا أيضا عند الإسبان شيئا يمكن أن يضيفوه إلى ما عندهم، فقد كانت الموسيقى الكنسية برتابتها وجودها هى السائدة، وتمثلت مباحج الطبقة العليا فى الصيد ومشاهد السيرك، وفقد المسرح أهميته، وانقض عنه الناس، ومع ذلك لا يمكن القول عن عامة الناس أنهم كانوا صامتين، يكتفون بسماع موسيقا القداس، إذ من الطبيعى أن يعيش المرء حياته الخاصة، ورغم غيبة الوثائق والنصوص استطعنا أن نعرف شيئا

بما كان يجري فى المجال الشعبى، ذلك أن الجماع الكنسية المختلفة التى كانت تعقد فى تلك الأيام، أخذت تشدد على منع الغناء والرقص الذى يقوم به العامة داخل الكنائس، وذهبت كل جهود الكنيسة عثا فى أن تعلم الموسيقى الكنسية محل الموسيقى الشعبية.

كانت هناك موسيقا شعبية إسبانية لانهرف طابعها ولاخصائصها وموسيقا عربية وافدة ليست بأرقى من تلك، ولكن المناخ كان مواتيا للرقى والتقدم، فقد اشتهرت قادس فى جنوب غربى إسبانيا، وهى مدينة أسسها الفينيقيون قديما، وشهرت بأنها قدمت للعالم القديم أجل الراقصات والمغنيات، وأصبحت هن شهرة عالمية، وقتن بهن المثقفون والأغنياء والقادة فى روما، وانعكس الإعجاب بهن فى قصائد الشعراء ونثر الكتاب.

ولما كان الأندلس يعيش ثقافيا فى مراحل تكوينه الأولى على ما يبدعه المشرق، ويمتدنى أثره ويطلب ملحا كل جديد فيه، فقد أصغى واعيا إلى تطور الحضارة العربية فى العصر العباسى فى مجالاتها المختلفة، وعرف أن الموسيقى ذهبت بالنصيب الأوفى من ذلك التقدم، فازدحم بلاط الخلافة بالموسيقين المحترفين، ولقوا معاملة حسنة لم يسمع بمثلا من قبل، وسعد هذا العصر بموسيقا عبقرى هو إسحاق الموصلى، فجدد فى الألحان، وأشاع الموسيقى، وأشرف على تدريب المغنيات، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدى مبتدع علم العروض عالما فى الموسيقى، وأبدع فيها نظريا كتابين هما: كتاب النغم وكتاب الإيقاع.. ولكن أيا منها لم يصلنا.

فى البدء كان الأندلسيون يستقدمون الموسيقيين والمغنيات من المشرق، أو يرسلون بهم ليتدربوا هناك، ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا يستقدمون كبار الأساتذة، فى مجالات الثقافة المختلفة، لكي يعلموا أبناءهم فى الأندلس نفسه.

وفىما يتصل بالموسيقا واتهم الفرصة مع على بن نافع الملقب بزرياب، وكان موسيقيا عبقرىا فذا، ومن أبنه تلاميذ إسحاق الموصلى، وحدث بينه وبين أستاذه خلاف لا يعيننا أمره هنا، فارق زرياب بغداد على أثره واتجه غربا، وفى القيروان خاطب الحكم الأول أمير الأندلس يعرض فنه فرحب به. وعندما بلغ الجزيرة الخضراء، أول حدود الأندلس، علم بوفاة الحكم فأوشك أن يعود من حيث أتى، ولكن الأمير الجديد عبد الرحمن الثانى أكد الدعوة، ولقى زرياب حفاوة بالغة عند وصوله قرطبة، فقد استقبله الأمير بظاهر المدينة، وأنزله قصرا فاخرا، وأجرى عليه راتبا كبيرا.

وكان وصول زرياب خطا فاصلا بين عصرين من الموسيقا.. لقد جاء الأندلس بأحدث ما وصل إليه فن التلحين فى المشرق، وابتدع هو نفسه وترا خامسا أضافه إلى أوتار العود الأربعة، واتخذ المضراب من قوادم النسر، معتمضا به عن مرهف الخشب، وهى فكرة بارعة موفقة، فهى تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر، وعلى كثرة ملازمته إياه، والضرب عليه، وأخذ فى إنشاء المعاهد الموسيقية على امتداد الأندلس، فى مدنه الكبرى: قرطبة، وإشبيلية،

وطليطلة، وسرقسطة، ومالقة وغيرها.. وكان الطلاب يدخلون هذه المعاهد بامتحان خاص، لدينا تفصيلات لا بأس بها عن طريقته .

ولكن الابتداع الأهم، والجوهري، والذي جعل زرياب أستاذا عظيما، ماهرا ومثقفا، منهجه الممتاز فى تعليم الغناء، فقد كان الأساتذة الفنانون قبله يعلمون تلاميذهم عن طريق التقليد، يعنى الأستاذ ويحاول التلميذ أن يقلده، وبقوة التكرار فحسب يحقق الطلاب النتائج التى يتفونها.. أما زرياب فقسم العمل إلى ثلاث مراحل: الأولى تعليم الإيقاع.. فيبدأ بالثيد بأى نقر كان.. والثانية تعليم الإيقاع فى بساطته دون أن يضيف إليه أى طبقة... والثالثة أن يتختم «بالمحركات والأهزاج».. ومعها تعود أن يضيف على الغناء تعبيرا وحركة ولطفا، وبها تتضح مهارة الفنان.

واستطاع زرياب بهذا المنهج، وبفرقة تتكون من أجل المغنين صوتا، بين مجموعة كانت تبلغ عشرة آلاف فيما يقال، أن يبلغ شهرة شعبية واسعة، وأرسل إلى زوايا النسيان كل من سبقوه، وأخل كل أولئك الذين كانوا على أيامه .

ووضع نظاما لارتداء الأزياء المختلفة، وأوقاتا محددة لتغييرها، ولكل فصل زيه المناسب، فيرتدى الناس الملابس البيضاء الخفيفة صيفا، والأزياء الحريرية غير المبطنة، والسترات ذات الألوان الزاهية فى الربيع، ويلبسون فى الخريف والشتاء الفراء والمعاطف ذات الحشو، والبطائن الكثيفة، وينتقلون فيها تدريجيا حسب شدة البرد، من الأخرى إلى الأقوى .

وكان الناس يلتمسون آراءه ويطبّقونها نصا وروحا، وما من تأثير لأنفاة الحضارة العباسية ورقيا يمكن أن يكون أشد نفاذا، وأبعد عمقا، عما كان عليه فى قرطبة، ونزولا على رأى زرياب الذى لا يناقش، ويقبل على علاته، غير أهل البلاط وسكان المدينة أزياءهم، وأثاث بيوتهم، وأساليب طبخهم، وظل اسم زرياب المعنى يتردد بعد ذلك لقرون عديدة، كلما ظهر فى صالونات شبه الجزيرة زى جديد أو مبتكر.



أصبحت الموسيقى وما تتطلبه من غناء ورقص فى القرن الرابع الهجرى، أى العاشر الميلادى، فى الأندلس.. كما فى بقية العالم الإسلامى. أكثر الملاهى قيمة.. ولم تكن هناك سهرة ولا احتفال ولا مهرجان لا يفسح للموسيقى المقام الأول فيه، وترك لنا المؤرخون أوصافا دقيقة إلى حد ما لبعض الحفلات الليلية التى تقام فى بيوت الخاصة، ونفهم منها أن المدعوين لا يكادون ينتهون من طعامهم وشرايهم حتى تبدأ المشاهد الغنائية الراقصة، تقدمها فرقة موسيقية تتكون من الجنسين.. وربما أكثر هذه الشواهد إثارة وتفصيلا مارواه لنا مؤرخ مصرى هو أحمد بن محمد اليمنى، رواية عن أديب أقام بمدينة مالقة الأندلسية عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م.. وهى شهادة لما يقع عليها أحد من الباحثين قبلا، وجديرة بأن تروى كاملة يقول:

«حكى بعض الأدباء قال : كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتلت بها مدينة انقطعت فيها عن التصرف ولزمت المنزل .. وكان يمرضنى حينئذ رفيقان كانا معى ، ويرفقان بى .

«وكنت إذا جن الليل اشتد سهرى .. وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصوات بالغناء .. وكان ذلك شديدا على وزائدا فى قلقي وتألمى وكانت نفسى تعاف تلك الضروب طبعاً ، وتكره تلك الأصوات الجميلة جبلة ، وأود أن أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك ، ويتعذر على وجوده لقلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم .

وإنى لساهر ليلة بعد إغفائى فى أول ليلتى ، وقد سكنت تلك الألفاظ المكروهة ، وهدأت تلك الضروب المضطربة ، وإذا ضرب خفى معتدل حمن لا أسمع غيره .. فكأن نفسى أنست به ، وسكنت إليه .. ولم تنفر منه نفاهاً من غيره .. ولم أسمع معه صوتاً ، وجعل الضرب يرتفع شيئاً فشيئاً ، ونفسى تتبعه ، وسمعى يصفى إليه ، إلى أن بلغ فى الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه .. فارتحت له ، ونسيت الألم ، وتداخلنى سرور وطرب خيل إلى معى أن أرض المنزل ارتفعت بى ، وأن حيطانه تمور حولى ، وأنا فى كل ذلك لا أسمع صوتاً ، فقلت فى نفسى .. أما هذا الضرب فلا زيادة عليه ، فليت شعرى كيف صوت الضارب ، وأين يقع من ضربه .

ولم ألبث أن اندفعت جارية تغنى فى هذا الشعر بصوت أندى من النوارغب القطار، وأحلى من البارد العذب على يد الهائم الصب، فلم أملك نفسى أن أقت، ورفيقاى ناثمان ففتحت الباب، وتبعت الصوت، وكان قريبا منى، فأشرفت من وسط منزلى على دار فسيحة، وفى وسط الدار بستان كبير، وفى وسط البستان شرب، نحو من عشرين رجلا قد اصطفوا، وبين أيديهم شراب وفاكهة وجوار قيام بعيدان وطناير وآلات لهو ومزامير لا يحركها، والجارية جالسة ناحية وعودها فى حجرها، وكل يرمقها ببصره، ويوعيا سمعه، وهى تغنى وتضرب، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونى.. وكلما غنت بيتا حفظته.. إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت.. فعدت إلى موضعى ويشهد الله كأنما أنشطت من عقال، وكأن لم يكن بى ألم..».

ولم تكن الموسيقى وقفا على المحترفين وحدهم..، يجيئها بأجر، ويقدمونها لمن يطلب، ويتكسبون بها فى القصور والبيوت والأسواق والميادين، وإنما كانت تكون جانبا أساسيا من تكوين الشخصية المتحضرة للفتيان والفتيات على السواء... ويحكى لنا ابن حزم، وابن حزم دائما! فى كتابه طوق الحمامة أن ضنى العاصرية كريمة المظفر عبد الملك صاحب الأندلس القوى.. وحاكمها الأوحده، طلبت منه أن ينظم لها أبياتا من الشعر تصنع لها الحنا، فاستجاب لما طلبت.. ويشئى ابن حزم على موسيقاها فيقول: ولها فيها صنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جدا..».

وكانت تربية الفتيات بخاصة تتضمن تعليمهن الموسيقى وتدريبهن عمليا على العزف بالعود والرباب والأدوات الموسيقية الأخرى، وعلى ألوان من الرقص الفنى العالى.. وهو تقليد وأصل سيره، ولما يتوقف ونجد أثره واضحا فى الفتيات الإسبانيات حتى يومنا هذا.

وكانت مشاهد الرقص متنوعة، وقدم لنا ابن خلدون صورة لإحدى اللوحات الراقصة، تظهر فيها الفتيات فى شكل غلمان ويعلقن الكرج فى ملابسهن، ويمتطين صهوات أفراس خفيفة من الخشب يمثلن دور الفرسان.. يهاجن مسرعات، ويقاتلن منسحبات.. ثم يعدن إلى المعركة من جديد.. وكان لباسهن.. فى ضوء أوصاف الشعراء فى شكل عباءة يمكن أن تنفتح من أعلى إلى أسفل، لكى يسمح للراقصة أن تتعرى فجأة إلا مما هو ضرورى.. وتصبح مثل «زهرة توشك أن تنفتح».

وقد يكون مفيدا أن نشير هنا إلى أن راسمى هذه اللوحات ومنفذها كانوا مصريين، إذ كان التبادل الفنى بين مصر والغرب الإسلامى قويا ومتواصلا.. وظلت مصر دائما فيما يرون أرض السحر والعجائب والذكاء.. وكان هؤلاء الفنانون المصريون موضع الإعجاب والتقدير فى إشبيلية وقرطبة والمرية وغيرها.

مع الزمن قويت الصلة بين الأندلس ومصر فيما يتصل بالفنون رقصا وموسيقا وغناء وتمثيلا.. أو كما كان يطلق عليهم القدامى «الخياليون والمشعوذون» ولم يعد للمدينة أو بغداد تأثيرها القديم.. ومضى زرياب من الذاكرة موسيقيا، ونقلت مصر إلى الأندلس فن «خيال الظل» وبدأت الموسيقى الأندلسية تسلك طريقا جديدا، ذاتيا وأصيلا، وأفسحت مجالا واسعا للإلهام الشعبي.. وعندما التقط الفنانون الترانيم، والأغاني الشعبية الأندلسية، وليدة الواقع الاجتماعي، كان على الشعراء أن يستجيبوا بدورهم لهذا التطور، فولدت الموشحة، بعد وصول زرياب، وشيوع الموسيقى، والحاجة إلى أشعار جديدة توائم الألحان المتجددة، وقد عجزت القصيدة العربية التقليدية في شكلها الثابت عن أن تستجيب لمتطلبات أنغامها المتحررة.

وإذا كانت الموشحة التزمت العربية الفصيحة لترضى أذواق الطبقة العليا المثقفة، وإن سهلت ألفاظها وعذبت ورقته، فإن المبدعين بالكلمة لم ينسوا أيضا حاجة «الناس اللئى تحت» فألفوا لهم موشحات في عامية أهل الأندلس، دخلت التاريخ تحت اسم الزجل.. وخذتها وخذ بها رجال عظيم هو ابن قزمان، ودفع بالشكل وموسيقاه فيما وراء حدود الأندلس على ماسياتى، في الشمال عند النصرارى، وفي الجنوب عند المغاربة، ولا يزال هذا اللون من الغناء والموسيقا سائدا ومزدهرا في المغرب العربي كله.. ويحمل اسم: الغناء الأندلسى أو كلام غرناطة.

ظلت الموسيقى مع رفيقها الغناء والرقص مطلوبة ومرغوبة، تبحث عنها الجماهير التي هدتها الحروب، وأرهقتها الضرائب التي تتطلبها آلة الحرب، وفي المشرق والمغرب على السواء، فهي تبحث عن المرح والبهجة تذيب فيها هوما لا قدرة لها على دفعها، وكلما أقبل الناس عليها ارتفع أجر الفنان، ونفقت سوقه، وعظمت مكانته، واشتد الطلب عليه، فحسدته طوائف كثيرة ترى نفسها الأحق والأجدر بهذا التكريم.. وعلى رأسهم الفقهاء.. ويعبر عبد الملك بن حبيب كبير فقهاء الأندلس في عصر عبد الرحمن الثاني عن هذا الاتجاه خير تعبير، فقد نفس على زرياب أن يعيش في مجبوحة من العيش، في أبيات شائعة:

ألف من الحمر وأقلل بها لعالم أرى على بغيته  
زرياب قد أعطيا جملة وحرفتى أشرف من حرفته

ومن جانب آخر، حين رأى الكسالى والقانطون والجهلة تردى العالم الاسلامى، وتراجعه أمام أعدائه، شرقا وغربا، ألقوا بالتبعة على الموسيقى، وحملوها وزر كل النكبات السياسية والحربية، وجعلوا الهزيمة عقاب الإقبال عليها، بدل أن يبحثوا عن الأسباب الموضوعية.. ومع التثاؤم من الغد، والعجز عن تدبير الحل، والبحث عن تبرير لما وقع.. ارتد المتزمتون إلى الهمسات التي نسبها الناس في لحظات الانتصارات، ورفعوا راية «الموسيقا رجس من عمل الشيطان»، وغدّى الفساد السياسى والادارى الذى كانت تنخبط فيه

الدولة هذا الاتجاه عندهم .. وأفسح له في أذهان العامة مكاناً،  
بأكثر مما غدته النصوص الدينية الصحيحة، أو الاقتناع المطمئن بها .

كان الناس ضائقين بالدولة، عاجزين عن تغيير الواقع، يرون  
المظالم ولا يملكون لها دفعا.. ويلمسون الفساد ولا يستطيعون له  
اجتئانا، فما عليهم إذن .. أن هرولوا وراء مجبول، وماذا يخسرون إذا  
استجابوا لمشعوذ .. وهكذا راجت في فترة التخلف والفساد، أفكار  
تحرم الفن، وتحرم الحياة .

• • •

حين يسمع المرء الموسيقى الإسبانية الأصيلة، وغناء الأندلسيين  
اليوم في جنوب أسبانيا، ويعرف باسم الفلامنكو، FLAMENCO فإنه  
يشعر في الحال بأن هناك علاقة وثيقة جدا بينه وبين الموسيقى والغناء  
العربيين، ويرد على خاطره في الحال فكرة تأثير الموسيقى العربية في  
الموسيقى الإسبانية هذه، وأن هذه العلاقة من بقايا هذا التأثير .

ومن الثابت تاريخيا أن الجانب الإسلامي في الأندلس، وهو  
الأقوى والأكثر تقدما، كان مهوى أفئدة الطبقة العليا في الجانب  
المسيحي، يهبطون إليه طلبا للعلاج .. أو لشراء الملابس الفاخرة ..  
ويجلبون منه الفنانين لحفلاتهم .. ولعب التهادي بالقيان بين ملوك  
الجانبين دورا بالغ الأهمية إلى جانب قنوات أخرى أسهمت في نقل  
الحضارة الإسلامية إلى بلاط الملوك المسيحيين في الشمال .

وقد شكوا مجمع القساوسة الذى انعقد فى بلد الوليد عام ١٣٢٢م من أن المسيحيين يدخلون المسلمين واليهود فى الكنائس، وهم يغنون ويعزفون على الآلات الموسيقية، وفى بلاط شانجه الرابع ملك قشتالة كان عدد الموسيقيين عام ١٢٩٣ الذين يتقاضون مرتبا من القصر سبعة وعشرين: ثلاثة عشر مسلما.. منهم امرأتان، ويهوديا، واثنى عشر مسيحيا.. وفى القرن الخامس عشر وجد فى تقارير بلدية ترويل بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٤٤٣ طلب من الأعضاء بدفع عشر قطع نقدية لمن يسمى محمد شاشو من أهل الفونت «لأنه قام بالعزف على آلة الموسيقى فى الاحتفالات الماضية».

وقد أثرت الموسيقى الأندلسية بدورها على امتداد القرن الثالث والرابع والخامس عشر فى الموسيقى الأوربية، مباشرة أو عن طريق الموسيقى الإسبانية، وبواسطة التجار والرحلات والحج المسيحى إلى شنت ياقب، وقبل ذلك كله عن طريق الأسيرات، وهن عادة من بنات الطبقة الراقية.. وكانت موقعة بريشتر، وحدثت عام ١٠٦٤ مثلا حيا لهذا التأثير الإيجابى.

فى أغسطس من ذلك العام قامت القوات المسيحية الأوربية، بدعم من البابا بمحاصرة المدينة، وهى فى الشمال الشرقى من الأندلس لمدة أربعين يوما، استسلمت المدينة بعدها، وغنم المنتصرون كل شىء فيها، البيوت والقصور والنساء، ووقع هؤلاء فى أسر الحياة العربية فاحتذوها، فارتدوا الملابس العربية، وصحرتهم الموسيقى الأندلسية، وحين قفل ملك الروم (النورمان) عائدا إلى بلده «تخبر

من بنات المسلمين الجوارى الأبيكار، والثيريات ذوات الجمال، وحملهن معه، ليهدين إلى من فوقه».

ويقدم لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير صورة لواقع إحدى الأسيرات الثقافى، وكلهن فى مستواها يقول: إن والد إحداهن وسط تاجرا يهوديا أن يأتى المدينة .. وهى فى يد الأعداء وأن يتجسس خبر ابنته وأن يفتديها بكل ما يريدون من مال ..

جاء اليهودى إلى بربشتر، وعرف أنها من نصيب قومس (كونت) فذهب إليه، ووجده يسكن بيت ذلك الثرى العربى، لم يغير منه شيئا، وعلى رأسه وصائف قائمات يسارعن إلى خدمته، فرحب باليهودى، وسأله عن قصده، فعرفه اليهودى بغايته، وأنه يدفع له ما يريد فداء إحدى الفتيات القائمات على رأسه، فرفض رفضا قاطعا، ولو دفع له فيها خير ما فى الدنيا.

ثم نادى فتاة أخرى قائمة على رأسه، وكانت تأسره بثقافتها، والموسيقية من بينها بخاصة، وطلب إليها أن تغنى فأخذت العود، وقعدت تسويه واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العليج، ولكن الموسيقى أطربت أيتها طرب .. فحث شربه، واستزادها إعجابا، ولما يشت منه، تركته ومضيت لحالى ..

ويروى ابن بسام، عن ابن حزم بخطه، عن ابن الكتاتنى الطبيب، محمد بن الحسن المذحجى، قال: شهدت يوما مجلس العليجة (أى النصرانية الإسبانية) بنت شانجه ملك البشكنس، زوج الطاغية

شأنه بن غرسية بن فردلند، بدد الله شيعتهم! — لبعض تردنا عن  
 ثغرنا إليه في الفتنة، وفي المجلس عدة قينات مسلمات من اللواتي  
 وهبن له سليمان بن الحكم، أيام إمارته بقرطبة، فأومات العلبة إلى  
 جارية منهن فأخذت العود وغتت بهذه الأبيات:

خليلي ما للريح تأتي كأنها يخالطها عند الهبوب خلوق  
 أم الريح جاءت من بلاد أحبتي فأحبها ربيع الحبيب تسوق  
 سقى الله أرضاً حلها الأغيد الذي لتذكاره بين الضلوع حريق  
 أصار فؤادي فرقتين فعنده فريقي وعندي للسياق فريقي  
 فأحسنت وجودت، وعلى رأس العلبة جاريات من القوامات  
 أسيرات كأنهن فلقات قر، فا هو إلا أن سمعت إحداهن الشعر  
 فأرسلت عينها كأنها مزادتان، فرقت لها وقلت: ما أبكاك؟ قالت:  
 هذا الشعر لأبي، وسمعتة فهيج شجوى، فقلت لها: يا أمة الله، ومن  
 أبوك؟ قالت: سليمان بن مهران السرقسطي، ولي في هذه الإساره  
 مدة، ولم أسمع لأهلي بعد خيرا».

قال ابن الكتاني: فاجزعت على شيء جزعى عليها يومئذ.

فالمرأة أسيرة في البدء، ثم زوجة أو وصيفة أو عشيقة في النهاية،  
 تلعب دورا قوى التأثير على الرجل الذي اصطفاها، ولما كانت المرأة  
 الأندلسية المسلمة عادة أرقى من الرجل المسيحي الذي آل إليه أمرها،  
 فهي تطبعه بطابعها، يحب ما تحب، ويكره ما تكره، وأخيرا يتعلم منها

لغتها العربية، فصيحة أو عامية، وما يتصل منها بالجانب العاطفي والعائلي على نحو أخص، وتأخذه بشيء من تقاليد مجتمعا وبيتها، والغناء والموسيقا فى مقدمة ماتأخذه به .

وقبل هذا كانت هناك بعثات عديدة تأتى إلى قرطبة للدراسة، ومن بينهم من يدرسون الموسيقا على التأكيد، وبلغ عددهم عام ٢١٣هـ - ٨٢٨م سبع مائة طالب وطالبة من مختلف مقاطعات إسبانيا وألمانيا وفرنسا.. جاءت بهم شهرة زرناب فيما يبدو.. فقد وصلوا بعد سبعة أعوام من مجئة إلى قرطبة.. والتحقوا بالمعاهد التى أنشأها يدرسون أصول الموسيقا ويتدربون على العزف بمختلف الآلات، وعلى فنون الشعر والرقص والغناء.

وكان الشعراء الجوالون، أو المداحون كما ندعوهم فى الصعيد، أو القوالون كما يطلق عليهم فى المغرب الكبير، يذهبون ويحيثون، ويذرعون الأندلس، وشمال إسبانيا وجنوب فرنسا، يتغنون بالقصائد القرامية أو الملاحم الأسطورية ولا يعترفون بالحدود السياسية أو الدينية أو اللغوية.. ويمثل الأولون ابن قزمان.. ووصلنا ديوان أزجاله كاملا، ويمثل اليوم مكانة ممتازة بين من يدرسون الموسيقا والرومانيات من المستشرقين.



وتذكر الباحثة الألمانية سيجيريد هونكه فى كتابها «شمس الله تشرق على الغرب» أن جورج الثانى ملك الإنجليز أرسل ابنة أخيه

الأميرة دوياننت على رأس بعثة من بنات الأشراف يرافقهن رئيس موظفي القصر الملكي، ويجعل كتابا من الملك إلى الخليفة هشام الثالث (١٠٢٧ - ١٠٣١) وهو آخر خلفاء بني أمية يلتمس منه أن تكون مع زميلاتها موضع عناية الخليفة وحماية حاشيته، وحذب اللائى سوف يتوفرون على تعليمهن، وحملت الأميرة معها هدية إلى الخليفة، تتكون من شمعدانين من الذهب الخالص، طول الواحد ثلاثة أذرع مع أوان ذهبية أخرى، عددها اثنتان وعشرون قطعة، مرصعة بأبدع النقوش.

وقد وافق الخليفة هشام الثالث على قبول البعثة، وأمر بعد استشارة من يعينهم الأمر أن يتفق عليها من بيت مال المسلمين، ورد على الهدية بأخرى من الطنافس الأندلسية.

مع القرن الحادى عشر بدأت جماعات التروبادور تظهر فى جنوب فرنسا.. ثم فى ألمانيا وبعدها جماعات المينيسجر، تنغنى بأشعار جديدة، جاءت فى شكل الموشحات الأندلسية، وعلى ألحان هى صدى مآدرسه مبعوثوهم من موسيقا فى المعاهد الأندلسية، أو سمعوه من الفنانين الأندلسيين، محترفين وهواة، وكان محتوى هذه الأغانى هو نفس محتوى الموشحات من غزل عف أحيانا، وغير محتشم أحيانا أخرى، ولكنه يوقر المرأة فى كل الحالات، ويدوب أمامها خضوعا وامثاللا، ويتغنى بجمال الطبيعة، ويعبر قبل كل شىء عن هموم المرء إنسانا، له طموحاته وأشواقه وإحباطاته أيضاً.

اتفق مؤرخو الموسيقى على أن الموسيقى الأوربية الحديثة لاتدين بشيء للموسيقا الإغريقية، فثمة فجوة واسعة تفصل بين المرحلتين، وبخاصة أن الألحان الإغريقية لم تدون، وأتى الزمن تماما على صدى أنغامها، ثم اختلفوا بعد ذلك ..

رأى فريق منهم أن الموسيقى الحديثة وليدة التأثير السلتى، والسلت قوم ينتمون إلى العنصر الهندي الآرى، ويعودون إلى عصر ما قبل التاريخ، تجمعوا أولا فى أوربا الوسطى، ثم زحفوا على بلاد الغال (فرنسا) وإسبانيا وإنجلترا.. ثم ذابوا فيما بعد فى الرومان، وهى نظرية لم تجد من الأدلة مايدعمها علميا.

وألقى آخرون بفرض غير علمى، وهو أن الموسيقى الأوربية الحديثة تفجرت عفويا على غير مثال سابق.

ولكن المستشرق الإسبانى العظيم خوليان ريبيرا عكف خلال اثنى عشر عاما، من ١٩١٢ إلى ١٩٢٤ على دراسة الموسيقى الأوربية الوسيطة، كنسبة وشعبية، والموسيقا الأوربية الحديثة، والشائعة على أيامه فى المقاطعات الإسبانية، وعند عدد كبير من بقية الشعوب الأوربية، فى دقة فنية متناهية، درس الإيقاع والتناسق والتغيير، وانتهى بعد أن استعرض جوانب القضية، ولاحقها فرضا بعد فرض، وتمعن موادها وثيقة بعد وثيقة، إلى حل أسرار هذا اللغز، وكان غامضا على جبهة الباحثين، وبعيدا عن تناولهم، وأكد فى بحثه على

أهمية الاستمرار التاريخي في هذا الجانب الثقافي، وانتهى إلى أن الموسيقى الأوربية الحديثة ليست إلا تطورا وصدى للموسيقا الأندلسية .

فقد كان العرب، فيما يرى.. فى الموسيقى.. كما فى بقية العلوم والفنون الأخرى والفلسفة، وبخاصة الأندلسيون منهم، ورثوا الثقافة الكلاسية ونقلوها إلى أوربا، ودورة الحياة لا تتوقف، فقد ورثت بيزنطة وفارس حضارة اليونان.. والتقط الإسلام حضارة الاثنين ومزج بينها وبين حضارة ثالثة قادمة من أقصى المشرق، وهى الحضارة الهندية، وكلها انتقلت إلى أمبانيا الإسلامية، فأثرت واغتنت بعناصر أخرى أخصبها فى الأرض الجديدة، وقدمتها إلى أوربا .

ذلك أن الموسيقى الأندلسية ليست مجرد صدى للموسيقا العربية الشرقية، وإن حافظت على خصائصها الجوهرية، فقد أضفى عليها الأندلسيون طابعا شعبيا، ونقلوها من الغناء الفردى إلى الغناء الجماعى، وابتدعوا أوزان الموشحات، والأزجال لتوائم صدى الألحان الجديدة وتنسق مع إيقاعها.. وتسرب هذا الطابع الأندلسى عن طريق التعليم أو التقليد إلى إسبانيا المسيحية، الملوك والشعوب على السواء، فى حفلات القصور، ومهرجانات الميادين، فى سمر الطبقة العليا وفى تجمعات العامة، وحتى فى الحفلات الدينية كان يستخدمون فنانيين مسلمين، وبدأ الشعراء المسيحيون يكتبون قصائدهم فى شكل موشحة لتغنى أو أن شئت لتوائم الإيقاع الموسيقى العربى، وأصبح شكل الموشحة أو الزجل شعبيا وشائعا فى كل الأندلس بجانيه الإسلامى

والمسيحي، وظل كذلك حتى منتصف القرن السابع عشر، أى بعد قرن ونصف من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس .  
وقد استخدم الأوربيون آلات الموسيقى العربية فى النسخ أو التقر.. وأخذوها بأسمائها العربية، وألحانها المتصلة بها، فقد استخدموا: العود، والرباب، والقيثارة، والناي، والتفير، والبوق، والدف وغيرها<sup>١</sup>.

وقد عرفت أوروبا لأول مرة فى القرن الثالث عشر مذهبا جديدا فى الموسيقى اسمه «فن الميزان»، والكتب التى وضعها المؤلفون الأوربيون عنه فى ذلك القرن، تشبه فى معالجتها لأنواع الأنغام ماكتبه العرب، والأغاني الشعبية من الموسيقى الغربية التى ألقت وفقا لفن الميزان مثل «الرونديو» Rondo وبلاداس Baladas لها صور ثابتة، وتركيبها الفنى هو بعينه تركيب الأغاني الأندلسية التى كانت سائدة فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وشاعت فى فرنسا، ونجدها فى إنجلترا أيضاً فى الأناشيد الدينية القديمة التى تمجد العذراء، وبمناسبة أعياد الميلاد، وذهبت هذه فى تقليد الموشحة أبعد من غيرها، فإذا كانت المزجة فى الموشحة تحمىء فى اللغة الرومانشية، أو فى عامية أهل الأندلس، فكذلك القصيدة الإنجليزية تحمىء فيها الأغصان باللغة الإنجليزية الشعبية على حين يحمىء القفل أو البيت الرابع أن شئت، فى اللغة اللاتينية.

---

(١) Leud, rebel, gall, du izaine, anafil alboue, adute.



فى البدء واجهت نظرية ريبيرا رفضا شديدا، مصدره عنصرية تتعالى على كل ما هو عربى، أو تعصبا دينيا يرفض كل ما هو إسلامى، أو تعاليا قوميا يدير ظهره لكل تأثير أجنبى، أو جهلا باللغة الإسبانية وفيها كتب البحث بدءا، ولكن ما إن أخذ البحث طريقه إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية مترجما، حتى تلاشت الصعوبات وتآلف التقنيون الموسيقيون مع النظرية الجديدة، وأصبحت مقبولة عند قطاع عريض من المؤرخين والدارسين.

بقى أن أشير إلى أن البحث لما يترجم إلى العربية حتى الآن، رغم كثرة أقسام اللغة الإسبانية فى جامعات القاهرة، وعين شمس، والإسكندرية والأزهر.

حاجة تكسف!!

obeikandi.com

## العالم العربي فى مطلع القرن التاسع عشر كما رآه رحّاله إسباني

كانت رحلة عجيبة، وكان رحّاله أعجب! ...

أما الرحلة فإلى العالم العربي فى مطلع القرن التاسع عشر، أو على التحديد بين عامى ١٨٠٣ و١٨٠٧، وأما الرحلة فإسباني تقمص شخصية عربية، وارتدى زيا شرقيا، واصطنع لنفسه نسا عباسيا، ومضى يطوف العالم العربي تحت هذا الستار.

تلك هى رحلة «الأمير على بك العباسي»، ولم يكن على بك هذا غير دومنجو باديا Domingo Badia، أحد الإسبان القلائل الذين ولوا وجوههم شطر الشرق ليروا ما هنالك، وأولهم، وإن لم يكن على التأكيد الأوربي الوحيد، فقد عرفت بلادنا رحالة كثيرين، جاءوا إليها من كل أقطار أوربا، للتبشير أو التدمير، وللتجسس أو التلصص، وفى القليل النادر لمعرفة كنه شعب ظل طوال العصور الوسطى المنارة الهادية، والشعلة المضيئة، والقوة المؤثرة، والجامعة التى يتجه إليها كل راغب فى المعرفة، طموح إلى الحكمة.

وربما تكون رحلة باديا هذه من أهم الرحلات الأوربية، لأنها

تكشف فى وضوح ، من خلال نص الرحلة وماأحاط بها من تدبير وملابسات ، ما كانت تخبىء أوروبا لعالمنا العربى ، وما سوف يتحقق بعد ذلك تدريجيا ، ذلك أن إسبانيا كانت تقف على هامش اللعبة ، تمنى أن يكون لها دور ، وأن تأخذ بنصيبها من الغنائم ، ولكن الأوربيين الآخرين لا يودون لها أن تخرج من واقعها الفقير الضعيف المتخلف ، ولم تكن تملك الإمكانيات المادية والعلمية التى تتيح لها أن تلعب هذا الدور وحدها .

ومن جانب آخر فإن الاهتمام بأمريكا الجنوبية وأهلها واكتشاف مجاهلها قد شغلها ردحا من الزمن ، واستنفد كل قواها ، فلما بلغت القرن التاسع عشر كان كل شىء فيها قد ترهل : الدولة ، والإرادة ، والاقتصاد ، والرغبة فى اقتحام المجهول . ومن هنا تكتسى رحلة دوونجوباديا أهمية بالغة ، وبالنسبة لنا فإن الرجل يقدم شهادة تتسم بالموضوعية عما رأى فى بلادنا ، فى فترة تقل فيها المصادر العربية ، على حين أن شواهد الرحالة الآخرين تنضح كذبا ومبالغات ، وخیالات وأوهاما ، وهى إلى الأدب المبدع أقرب منها إلى الواقع والتاريخ .

الأخبار المتصلة بحياة باديا فى طفولته وصباه قليلة جدا ، وكل ما نعرفه عنه أنه ولد فى برشلونة فى أول أبريل عام ١٧٦٧ لأب يعمل أمينا لحاكم هذه المدينة ولأم ذات أصل بلجيكى ، واستقر أهلها فى برشلونة منذ القرن السابع عشر ، وليس هناك ما يشى أنه تلقى أية

دراسة عالية، أو التحق بأية جامعة، ولم يكن ذلك ضرورياً في تلك الأيام لكى يتولى المرء وظيفة إدارية. غير أن أحداً لا ينكر عليه أنه تميز بالذكاء وحب المعرفة، والولع بالقراءة، والميل إلى دراسة الرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وحصل منها قدراً طيباً أهله وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن يعين موظفاً بالإدارة المالية فى غرناطة، وفى التاسعة عشرة خلف والده فى وظيفته التى كان يشغلها فى بيرة فى مقاطعة المرية، عند ما نقل منها إلى مدريد.

وبعد إقامته فى بيرة خمس سنوات تزوج فتاة منها، ولدت له بنتاً بعد ثلاث سنوات من الزواج، وفى العام نفسه نقل مديراً لمصنع الطباق الملكى فى قرطبة، وفيها أمضى أربع سنوات يدرس ويتأمل، وغيرت مجرى حياته، إذ فتحت أمام ناظرية ألواناً من التأمل، وأثارت فى حنايا عقله جديداً من الأمل والتفكير.

رأى فى قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية أطياف المجد الغابر، وطابع الحضارة الباقية عبر الزمن، ورأى فى أهلها شموخ العزيز، وأنفه الأصيل، وحسرة الكليم، ورأى خمسة قرون لم تغير من الناس كثيراً، ذهبت دولة وجاءت أخرى، اختفى الإسلام وسادت المسيحية، ولكن قرطبة لم تنس ماضيها لحظة، حتى بعد أن احتلت أجراس الكنيسة العظمى مآذن المسجد الجامع، ورغم أن أهلها لم يعودوا عرباً ولا مسلمين.

وربما إلى هذه الأعوام يعود بحثه الأول عن «النفط والآلة  
والمناطيد الهوائية»، وأهداه إلى جودوى Godoy رئيس الوزراء  
الإسباني، ومع أن الحكومة الإسبانية يسرت له الوسائل بعد إلحاح  
منه، إلا أن التنفيذ تحول إلى سلسلة من الصعوبات والعوائق،  
وفشلت محاولاته، وبعدها ترك قرطبة إلى ثغر قادس، ويبدو أنه لم  
يتسلم عمله هناك لأنه لا يظهر في قائمة الوظائف التي تولاها،  
وحزرها بيده بعد إنتهاء رحلته. وقد ذهب إلى مدريد للدراسة فيما  
يقول، ولأنه يود أن يعرض خططه على الإدارة في انتظار موافقتها.

وفي ٨ من أبريل ١٨٠١ قدم إلى جودوى مذكرة، دون وسيط  
ولا توصية — فيما يقول — تتضمن خطة رحلة إلى إفريقيا، لغايات  
سياسية وعلمية، وأرفقها بخريطة جغرافية، وأشار فيها إلى أن العقبة  
الرئيسية أمامه، وأمام أية رحالة أجنبي، هي تعصب الشعوب  
الإسلامية، فهم ينظرون إلى أصحاب العقائد الأخرى على أنهم أعداء  
ألداء، ومن يميت في قتالهم فهو شهيد. وأما الأوربي الذي يخفى دينه  
وطنه، ويتقدم إليهم في صورة مسلم فسوف يستطيع زيارة بلادهم  
كلها، ولا يكلفه هذا إلا شيئا من اللغة العربية، وأن يحفظ قدرا هينا  
من القرآن الكريم، وأن يرتدى ملابس شرقية، ويحافظ على المظاهر  
والتقاليد الإسلامية، وأن يأخذ اسما إسلامياً.

ولم يكن غافلا عن التعصب الكاثوليكي القائم الذي يمسك بمصائر  
الأمر في إسبانيا، فلا يرتضى له أن يتظاهر بالإسلام مؤقتا حتى

لغايات سياسية، مما يؤدي إلى توقف الحكومة فلا توافق على خطته، ولهذا أسرف في الحديث عن نبل مشروعه وغاياته، والفوائد العظيمة التي تجنيها المسيحية من وراء اكتشافاته.

وكان تنفيذ الخطة يقتضى أن يقيم في مدينة فاس شهرا أو شهرين، يتعلم خلالها لغة المادينج التي يتكلمها سكان إفريقيا السوداء في أعلى السينغال والنيجر، فقد تصور أن بعض التجار في فاس ممن يتاجرون مع داخل أفريقيا يتكلمونها، واعتقد أن هذه اللغة مفتاح التفاهم مع سكان أفريقيا السوداء، فإذا أكمل هذه المهمة بدأ رحلته على ثلاث مراحل كبرى:

المرحلة الأولى تبدأ من مدينة هراكش إلى أغادير في جنوب غربى المغرب على ساحل الاطلنطى، وتطلق المصورات الجغرافية الأوربية على هذه المدينة الأخيرة اسم سانتا كروث، ثم يدخل الصحراء من وادى درعة على حدود المغرب الجنوبية، عبر الطريق التي رسمها سيدى محمد موسى عبد الله، وهو تاجر من جبل طارق، للرحالة الإنجليزى هونج بارك، ويصل إلى بنون في شهرين، وهو مكان عبثا نفتش عنه فى الخرائط القديمة أو الحديثة، ويبدو أنه مجرد محط للقوافل، ومن هذه إلى مدينة ولانة، وهى اليوم فى موريتانيا، ويذكر ابن بطوطة أنها على مسيرة شهرين من سبلماسة فى الجزائر، ثم تنبوكتو فى مالى والهوسة، وبعدها إلى سان جورج فى ساحل الذهب، وهى المينا فى غانا الحالية.

وبعد أن يستريح قليلا فى هذا المكان الأخير تبدأ المرحلة الثانية، وفيها يعبر إفريقيا الاستوائية من الغرب إلى الشرق، إلى أن يصل إلى بيافرا، ثم إلى مدينة ميلندى فى زنجبار على ساحل المحيط الهندى، وهى مدينة على بعد خمسين ومئة كيلو مترا إلى الشمال من ممباسا، على شاطئ كينيا، وكانت فى تلك الأيام مركزا تجاريا هاما، ترده البواخر العربية بكثرة، وفيها التقى المستكشف البرتغالى فاسكو دى جاما بالملاح العربى أحمد بن ماجد، والذى قاده عبر المحيط فى رحلته إلى الهند.

وكانت المرحلة الثالثة أن يبدأ من الحبشة إلى دارفور وكردفان والنوبة وكانيم وطرابلس، وكانت كانيم مملكة مستقلة ظلت حتى عام ١٨٤٦ على ضفاف بحيرة تشاد، ويلاحظ على خطة باديا هنا الاضطراب، لأن النوبة شمال شرق دارفور وكردفان على حين أن كانيم أقصى جنوب الطرق الرئيسية التى تخترق الصحراء وتنتهى فى طرابلس الغرب.

وقد قدر باديا أنه سوف يقطع قرابة عشرة آلاف كيلو مترا، تحتاج إلى ثلاثة أعوام، وهو ما يسمح له أن يعد تقريرا مفصلا عن السياسة والاقتصاد والعادات والمنتجات، ومواد الترف الأكثر طلبا وإقبالا عليها، فى المناطق التى سوف يزورها. وأن يرسم لها خرائط، وأن يجمع منها نباتات وأحجارا، وأن يعثر على منابع النيل، وعبثا كان يبحث عنها قبله الإنجليزيون برون وجيمس بروس، ووصلا قبله

بأعوام، ولا بد أنه اطلع على رحلة هذا الأخير إلى منابع النيل، لأنها تُرجمت الفرنسية، وصدرت في باريس. وكان بطمح في الحصول على معلومات وافية عن تنبوكتو عاصمة الصحراء، وكان يُظن يومها أنها غارقة في الثراء.

وتظهر الخطة ثقة باديا في نفسه، وثقافته وقوة تحمله، وصلابة جسمه، ولم يكن لها ما يبررها أو يبرهن عليها.

مثلا، كان يعتقد أنه قادر على تعلم اللغة العربية في زمن بسيط، وأن يتعلم لغة المندينج في شهرين يقضيها في مدينة فاس، ولكنه لم يجد فيها تاجرا واحدا يعرف شيئا عن هذه اللغة، لأن الذين يتحدثونها يقيمون بعيدا عن محيطهم التجاري، والتجار الأفارقة الذين يتعاملون معهم، يعرفون العربية غالبا، أو يعرفون منها على الأقل ما يحتاجون إليه في حوارهم التجاري.

يبدو أن باديا اعتمد كثيرا على رحلة هونج بارك وتعليقات الميجور زنبيل عليها، وصدرت طبعها الثانية في لندن عام ١٧٩٩، وأنه قرأها بعناية، وأنّ تظاهرة بالإسلام، واختياره الزى الشرقى جاء نتيجة مباشرة لها، لأن هونج وقع أسيرا، وفيما بعد، عندما أطلق سراحه أكد على أنه كان يمكن أن يفلت من الأسر، وأن يتجنبه، لو أنه كان مسلما، وكان سيدي محمد هوسي قد حذره من زيارة تنبوكتو، لأنهم هناك يعتبرون غير المسلمين أبناء الشياطين، وأعداء الرسول عليه الصلاة والسلام.

لكن من الحق أيضا أن معلومات باديا كانت قاصرة، لأن مثل هذا الزئى لا يخدمه فى شىء فى المناطق التى تقع جنوب تنبوكتو، والتى كان يتبأ لاختراقها، لأن المسلمين كانوا فى هذه المناطق قلة، أو لا يكاد يوجد فيها مسلمون .

على أية حال أصبح مثل هذا التخفى شيئا شائعا بين كبار رحالة القرن التاسع عشر، فالسير ريتشارد بورتو حج إلى مكة فى ثياب درويش فارسى، والإسباني جفيرا جال المغرب كله مسلما ارتد عن المسيحية، واتخذ اسم القائد إسماعيل، والفرنسى رينيه كيليه رحل إلى تنبوكتو فى صورة مسلم شرقى انفصل عن والديه منذ الطفولة، والدكتور لينز أشقر الشعر، ويجهل العربية تماما، ذهب من طنجة إلى تنبوكتو متخفيا وراء مظهر طبيب عثمانى، على حين أن فوكول تعمق فى جبال الأطلس فى ثياب يهودى، وكل هؤلاء الرحالة، طبقا لروايتهم فى رحلاتهم، سعدوا بالزى الشرقى الذى اختاروه، وعلى حين لقى كيليه حفاوة بالغة من المغاربة، وصدقوه فيما قال، كما صنعوا مع باديا من بعد، لم يستطع أن يتغلب على شكوك السود فيه .



تلقت الدوائر الحاكمة فى إسبانيا مخطط باديا بحماسة بالغة، وبخاصة الملك وجودوى رئيس الوزراء، وأحيل التقرير إلى مجمع التاريخ الملكى، فألف لجنة ثلاثية لدراسته، وكان ردها: إن باديا مجرد هاو، ومعلوماته ليست عميقة، ولا واسعة بالقدر الذى تتطلبه

رحلة كهذه، وشكت فى نجاح المخاطرة، وأشارت إلى أنه مجهل العربية، ولم يختر رفيقا يصحبه، يؤكد المعلومات التى سوف يضمها تقريره، ويحافظ على الملاحظات والأوراق إذا حدثت لباديا مصيبة، ولكنها أمام روح المغامرة والحماسة اللتين أبداهما توصى بتوجيه ذلك إلى أمريكا الجنوبية، فى نطاق أملاك ملك إسبانيا.

ولم ييأس باديا، وعاد إلى جودوى من جديد، وليفتح شهيته أخذ يعدد ماسوف تجنيه إسبانيا من الرحلة، ومن إمكانية ضم أراضى جديدة إلى أملاكها، وترك لنا جودوى نفسه، فى مذكراته، انطباعاته عن هذا العرض، يقول:

«إن رحلة إلى الخارج، إلى إفريقيا وآسيا لابد أن تكون علمية فحسب، وغايتها الأساسية تنحصر فى معرفة الوسائل التى تمكنا من مد تجارتنا من المغرب إلى مصر، ورسم الخطط كى تبلغ مناطق آسيا مع استقلال كامل عن القوى الأوروبية... وثمة فكرة استقرت فى خاطرى، وتعيش دائما فى فكرى، وبت أحلم بها، وهى البحث عن طريقة نصل بها إلى تجارة أفريقيا الداخلية عن طريق المغرب، فهناك مواد تجارية كثيرة، ليست بذات أهمية، أو حتى لاتساوى شيئا فى أمريكا، وقليلة القيمة، وليست لها أسواق مضمونة فى أوروبا، يمكن أن نجد لها مخرجا فى البلاد الأفريقية، وبأثمان عالية... إن إسبانيا فقط يمكنها، لموقعها الجغرافى، أن تستفيد بالتجارة مع أفريقيا دون أن تخشى منافسة».

واقترح باديا أن يصحبه في رحلته هذه رجل آخر وجده في معهد سان إيسيدورو الملكي، يدعى سيمون دي روخاس، من قرية تطواس في مقاطعة بلنسية، حصل على الدكتوراه في اللاهوت من جامعتها، ويعرف اللغة العربية، وترك رسالة صغيرة طبعت في مدريد عام ١٨٠١ بعنوان: «عرض موجز للنحو والشعر العربي»، تحمل بعضا من الأفكار الموجزة عن هذين الموضوعين، وعلى الرغم من قلة أهميتها علميا تعكس الحالة التي كانت عليها دراسة اللغة العربية في إسبانيا في تلك الأيام، والوجهة التي كانوا يفكرون في أن تكون عليها. وكان روخاس يشارك باديا في معرفته بالعلوم الطبيعية، لأنه أمضى أيامه يعمل في الحديقة النباتية في مدريد، ثم اختير نائبا في البرلمان الإسباني.

ووافقت الحكومة الإسبانية على الخطة وتمويلها، ولم يكن باديا سعيدا بها، لأن المبلغ الذي قُدِّر له مجرد مساعدة على الدراسة لا يزيد عن ثلاثة آلاف ريال، تضاف إلى مرتبه، ونصف المبلغ يدفع لروخاس بوصفه مرافقا، كما خصص مبلغ آخر لشراء الآلات العلمية، ويجب أن تهج في إنجلترا بحضور باديا نفسه، وقد تأخرت الرحلة بضعة شهور، وفيها ودَّع الملك والملكة، وتمنيا له التوفيق.

وعندما عاد إلى مدريد، وذهب إلى وزارة المالية، عرف أنه لا توجد أموال لكي يدفعوا له المبالغ المقررة بأمر ملكي، ومع ذلك قفى ٧ مايو ١٨٠٢ ودَّعا جودوى وخرجا إلى باريس، وفيها اتصل

بالمهيات العلمية المختلفة، وحصل على بعض المعلومات الجغرافية والبحرية، وتحدث عنها لمن التقى بهم من الفرنسيين، وصنع الشيء نفسه في لندن، وشرح لهم الغاية من رحلته إلى المغرب متخفياً في زي مسلم، ولم يكن هذا سرا وطنياً ولا حكومياً، لأن جريدة مدريد أعلنت عن الرحلة، وكان هذا تهوُّراً ما في ذلك شك، على أن أحداً في البلاد التي رحل إليها لم يتعرف على حقيقته، وهو ما يرجع في جانب منه إلى الصدفة وحدها، وفي الجانب الآخر إلى قلة الاتصال بين أوروبا والبلاد العربية في تلك الأيام.

وفي إنجلترا قام باديا بصنع الوسائل التي سوف يحتاج إليها في رحلته، ثم أجرى عملية الختان لنفسه عند طبيب يهودي، منتهزاً فرصة غياب زميله، الذي ذهب ليجمع بعض النباتات التي يحتاج إلى دراستها، وعندما عاد روخاس مع الفجر وجد صديقه باديا شاحب اللون، غاضب الدم من وجهه، وعرف منه الأمر، وتلقى النصح بالأبى يخضع لهذه المفامرة المرعبة مهما كان الأمر.

ومن لندن استقلاً الباخرة «جورج» إلى مدينة قادس في جنوب إسبانيا، ووصلها في ٢٣ أبريل ١٨٠٣، وفي الباخرة استقر رأبها على أن يحمل باديا اسم على بك عبد الله، وروخاس اسم محمد بن على، ويبدو أن هذا لم يكن مقتنعاً بالرحلة، فتخلف في قادس، وفي ٢٩ يونية عبر باديا إلى طنجة وحده، ولم يرد أن يعلم قنصل إسبانيا في المدينة بالأمر، لأنه خلف أخاه في المنصب، ويملكان في

المغرب مصالح هائلة، ويعارضان بقوة أى تغيير فى الموقف، ووصفه باديا فى رسالة بعث بها إلى جودوى بأنه يملك عدد كبيرا من النساء فى منزله، وتعامله الدائم معهن جعل شخصيته رخوة طرية، وله علاقات مع كل تجار المغرب، وإذا أحس بأى خطر على ثروته فلاشك أنه سوف يستخدم كل قدراته للحفاظ على ما يملك، مما يمكن معه أن يشعر المغاربة والقناصل الأوربيين بالخطر.

قدم على بك نفسه فى طنجة على أنه مسلم سورى، درس العلوم منذ طفولته فى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا، ولهذا نسى لغته القومية تقريبا، ولو أنه محافظ على أوامر القرآن الكريم. ويرغب فى أن يعود ويتعمق فى دين آبائه، وداوم على الصلاة فى المسجد الجامع، وأخذ يوزع الصدقات على الفقراء والمساكين، ووضع زيرا على باب المسجد ليشرّب منه الناس، وتنبأ بالكسوف والخسوف الذى حدث فعلا فى ١٠ فبراير، وبذلك ذاعت شهرته حتى بلغت قاس وتطوان والرباط، وتوثقت صلته بكبار رجال المدينة، العشاش حاكمها، وعبد الرحمن مفرج قاضيا، ووعراقية ابن أحد أولياء المدينة الكبار، ولأنه كان يجهل اللغة استخدم يهوديين سفرديين يخدمانه ويقومان بالترجمة.

وأثناء إقامته فى طنجة جاءها السلطان مكرها، لأن سفينة مغربية يقودها الرئيس إبراهيم لبارس استولت على سفينة أمريكية، فتدخل الأسطول الأمريكى، واسترد سفينته، وأسر الرئيس إبراهيم،

ورفضوا أن يطلقوا سراحه إلا إذا جاء السلطان شخصياً إلى طنجة ليصدق على الاتفاقات القائمة بين البلدين ويؤكددها. واغتم على بك الفرصة فحاول أن يرى السلطان، ويتعرف إلى الشخصيات الكبرى في البلاط المغربي، ومن بينهم هولاء عبد السلام، الأخ الأكبر للسلطان، وكان أعمى فاجراً، منغمساً في اللذات، غارقاً فيها حتى أذنيه، ومغمرماً بقاء الأجانب والتحدث إليهم، ورئيس الديوان محمد السلاوي، وصهره هولاء عبد الله إدريس، وقد اهتم السلطان فيما يذكر بأعماله العلمية، وأذن له هولاء سليمان أن يزور المغرب، ولكنه لم يستطع خلال إقامته في طنجة أن يرى السلطان شخصياً.

وفي ذلك الوقت تلقى قنصل فرنسا في المغرب، وكان يعمل اسم «القومير العام للعلاقات التجارية» رسالة من تاليران وزير الخارجية الفرنسية في ٢١ سبتمبر ١٨٠٣ يوصيه فيها بأن «تركياً من حلب، يدعى عثمان بك، ويملك ثروة طائلة، كان موضع اضطهاد شديد، فلجأ إلى إيطاليا منذ زمن طويل، مع زوجه وبنتيه وخادم، ولم يبق من نسله إلا ابنه علي، ورغب في تربيته تربية عالية، ونظراً لمستواه الاقتصادي المرتفع أرسله في رحلة إلى فرنسا وإنجلترا حيث تفرغ تماماً لدراسة العلوم، وعرف كيف يحتفظ بعلاقات وثيقة، وصدقات قوية، مع العلماء الذين التقى بهم أو كان يتردد عليهم، وقد كان في باريس منذ أربعة أعوام حين تلقى الخبر بوفاة والده في قرطبة، فذهب إلى هناك ليأخذ ممتلكاته، ثم قرر أن يزور البلاد

الإسلامية، وقبل أن ينفذ خطته عاد إلى فرنسا ليتعمق في الدراسة، وقام برحلة ثانية إلى إنجلترا لكي يرتب أموره، لأن والده أودع في البنوك البريطانية بقايا ثروته، ومن هناك أبحر إلى قادس حيث ظل زمنا، ثم رحل إلى طنجة، ولا يزال فيها حتى الآن فيما أتصور.

«وطبقا للمعلومات المشجعة التي وصلتني عن علي بك يمكن أن تثق في كل مايقوله لك عن نفسه شخصيا، وإذا أتاحت لك الفرصة تحقق من صدق أجوبته بأسئلة مفاجئة توجهها إليه، وأدعوك إلى أن تقدم له خدمات جلييلة إذا طلبها، وأن تسهم في كل مايمكن أن يجعل إقامته طيبة في المغرب».

وثمة رسائل أخرى توصى به أرسلها أصدقاؤه من إنجلترا إلى القنصل الإنجليزي في طنجة، وإلى أسرة جاد الله Guedallas اليهودية، وهي تقيم في مجادور من عمالة الساورة وتحترف التجارة، وفيها يطلبون مساعدة هذه الرحالة، وقد تأثر باديا بهذه المشاعر، نظرا لقصر المدة التي قضها في لندن، وقلة تحدته عن المهمة التي سوف يقدم عليها. وكانت الرسالة الموجهة إلى القنصل الإنجليزي تحذر منه فيما يبدو، لأنه في رده على وزير المستعمرات البريطاني أفاد بأنه يراقب نشاط هذا السوري الغالي (نسبة إلى بلاد الغال، أي فرنسا)، ومشيرا بأن الإسبان يبذلون جهدا كبيرا لكي يكسبوا أصدقاء في المغرب، عن طريق توزيع أموال كثيرة.

وكانت المخاطر التي تولدت عن الرسالة الموجهة إلى آل جاد الله اليهود أكثر من غيرها، لأن اليهود الإنجليزى الذى كتب لهم طلب منهم أن يسهلوا لعلى بك الأموال التي يحتاجها، ولم يخف عنهم أنه جاسوس متخفّ.

وقد أخطر جودوى نائب القنصل الإسباني عن طابع رحلة باديا، وأمره أن يضع نفسه تحت تصرفه، وأن يكون الوسطة فى تقديم المساعدات المالية وتبادل الرسائل، وفى الوقت نفسه كلف الكولونيل فرانسيسكو عمروس الضابط فى وزارة الدولة ومكتب الحرب أن يتابع خطى باديا، وأضفى على الموضوع اهتماما خاصا، وأحاطه بكتمان شديد، ولم يشر إليه أبدا فى الرسائل التي كان يرفعها يوميا إلى الملكة ماريا لويزا.

كان عمروس يتصل بباديا مباشرة أو عن طريق نائب القنصل، يحتفظ بكل الرسائل والوثائق الخاصة بالمغرب فى بيته، وهو مسئول فى جانب عن الأسطورة التي حاكها المهتمون بإفريقيا حول باديا، والمذائح التي أضفاها عليه غير مغلصة وتسم بالمبالغة الشديدة، وكان يهدف من ورائها إلى أن يمدح وزير الحربى بطريق غير مباشر، فهو يدعو بالمقدام والفظن والنبيل، الذى يريد أن يقدم مملكة كاملة هدية لإسبانيا، ولم توات أحد قبله الشجاعة ليختن حبا فى العلم، وهو رجل يجرى فى عروقه دم الأبطال الإسبان الذين غزوا العالم الجديد.

وصل عمروس إلى طنجة في الوقت الذي وصل فيه على بك، وهو الاسم الذي سوف يحمله باديا منذ الآن، وبقي فيها أربعة شهور كاملة بعد خروج على بك إلى مدينة فاس، أي إلى فبراير ١٨٠٤. وفي مدينة طنجة تبادل الرأي حول الخطة التي وضعها على بك لفتح المغرب، وفي الأيام التي أمضاها وحده حاول أن يضيف مزيدا من التدقيق في القسم الخاص به.



كانت العلاقات الإسبانية المغربية تمر في هذه الفترة بمرحلة حرجية، اقتضت مزيدا من العناية بهذين المغامرين، وتأتى مشكلة صيد السمك في المقدمة [لاحظ أن المشكلة لا تزال قائمة حتى الآن] والحاجة إلى إذن السلطان لكي تستطيع إسبانيا استيراد القمح، لمواجهة أعوام الجذب، وقلة المحصول التي تمر بها. وكانت المبادلات التجارية قد بلغت أوجها في عهد سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٦ - ١٧٩٠)، ولكنها توقفت باستيلاء مولاي يزيد على العرش (١٧٩٠ - ١٧٩٢)، وما كانت إسبانيا تحصل عليه كانت تستورده من الجنوب، حيث الأمير الناثر مولاي هشام، وكان يتلقى الدعم من إسبانيا.

وبعد انتصار مولاي سليمان، وكان فقيها متدينا، حريصا على تنفيذ الشريعة الإسلامية، استجاب لرغبة الجماهير النائرة في الرباط، والتي كانت تطالب بمنع التجارة مع الكفار، فأصدر قرارا بمنع تصدير

القمح من ميناء الرباط، ومع أن إسبانيا كانت قد وقعت عام ١٧٩٩ معاهدة سلام وصداقة مع المغرب، وتنظم شؤون الصيد والتجارة والإبحار، لكنها لم تُطبَّق واقعا، ذلك أن الطاعون الذي اجتاح المغرب في تلك الأيام أدى إلى تعطيل الاتفاقيات التجارية، ولم تكن إسبانيا تسمح بأن يدخلها شيء من المغرب غير البريد، مرة كل أسبوعين، خوفا من العدوى، وعندما انتهى الوباء رفض المغرب تطبيق المعاهدة، ولم يسمح بالتصدير إلا في عام ١٨٠١، ومن مينائى الدار البيضاء ومجادور، ومع ذلك فإن طلبات القمح لم تنفذ.

فشلت مهمة عمروس فى الحصول على قح من المغرب، وفى ذلك الوقت كانت الأخبار والتقارير تشير إلى هجوم محتمل على مليلة يقوم به هولاي سليمان شخصيا، ولم يكن السلطان يخفى رغبته فى أن يهاجم مدينة سبتة ويستولى عليها، وطلب مدافع من إنجلترا لحصارها، وفى عام ١٨٠٧ عرض وزيره السلاوى على القنصل البريطانى أن ينفرد وطنه بحق الحصول على القمح والحبوب من المغرب مقابل أن تقوم القوات البريطانية بغزو سبتة وتسليمها للمغرب.

كان جودوى يعرف أن باديا مضى إلى المغرب كعربى لا كإسبانى، أمير عباسى ينحدر من قبيلة الرسول عليه الصلاة والسلام، والواقع أنه لم يقل فى المغرب شيئا من هذا، وإنما كان يُعرف فقط بالحلبى دون عباسى أو أمير، ولعله أخذ هذا اللقب عند عودته إلى أوروبا. وألح عليه جودوى أكثر من مرة أن يكسب ثقة السلطان كلما

أتيحت له الفرصة، وأن يوعز إليه بطلب مساعدتنا وتحالفنا ضد المتمردين الذين يقاتلون إمبراطوريته ويهددون عرشه، غير أن الأعوام التي أمضاها على بك في المغرب كان هذا يتمتع بالرخاء والازدهار والسلام.

وفي رسالة أخرى يحث جودوى على بك: إذا لم تستطع أن تقنع السلطان بما سبق فعليك أن تكشف الملكة بوصفك رحالة وأن تتعرف إلى مختلف القوى، وأن تعلم آراءها، وأن تستخدم ذكاءك مع أعداء السلطان، حتى إذا دخلوا في حرب معه يمكنهم أن يعتمدوا على مساعدتك، وأن نتفق على مصالحنا المتبادلة، وأن تكون لنا غاية أبعد: أن نصبح سادة جانب من الأمبراطورية المغربية، وهو ما يعنينا أكثر.

أعد على بك خطة لفتح المغرب، أو جانب كبير منه على الأقل، تعتمد على استثمار الخلاف القائم بين السلطان وفقهاء مدينة فاس، والسخط السائد بين جماهير الرباط وسلا لضياع تجارتهم مع المسيحيين، والاتصال بشيوخ القبائل في جبال الأطلس، وإقناع السلطان بالتحالف مع إسبانيا وطلب العون منها، فإذا رفض ذلك عرضه على رؤساء المتمردين وأقنعهم به، وبالتعاون فيما بينهم، وبلغت به الأمانى غايتها فراح يحلم بنفسه سلطانا يجلس على عرش المغرب، أو يضع عليه سلطانا جديدا من صنعه.

والواقع أن الاثنين، على بك وعمروس، كانا يجعلان الموقف

العسكري في المغرب تماما، وأكثر جهلا بموقف القبائل في جبال الأطلس، ولم تكن هذه تخضع للسلطة المركزية، ولم يسبق أن زارها رحالة أجنبي، ولم ير على بك أي رئيس من رؤساء القبائل الجبلية، وحين عرض على السلطان إقامة تحالف بينه وبين إسبانيا، كان ردّ السلطان عليه، بأنه يفضل أن يقود على بك جيشا يعيد به الإسلام إلى إسبانيا.

وقد قام على بك بهذه الرحلات، طبقا لاعتراقاته، مصحوبا بحرس محدود جدا: أربعة جنود رافقوه من طنجة إلى فاس، واثنتان عند الخروج من هذه، وخمسة في رحلته إلى مجادور، وهو يكفى للبرهنة على أن أهميته لدى البلاط المغربي لم تبلغ الحد الذي ينسب لها من الأهمية.

وعمليا، على النقيض مما في خططه، تجنب أن يقترب من الأراضى التي في قبضة الثائرين، وحين أراد الانتقال من فاس إلى مراكش لم يذهب إلى هذه مباشرة حتى يتجنب أي لقاء مع قبيلة زمرر الثائرة، وإنما انتقل من فاس إلى الرباط، ومن هذه إلى مراكش. وفي هذه المدينة الأخيرة، وكانت العاصمة، أحسن السلطان استقباله، وعامله كزائر ممتاز، وأنزله في قصره الريفى في سملالية، وكان ينزله السفراء الإسبان فيما سبق، وأسكنه بيتا في المدينة، وبعد إقامته خمسة أسابيع في مراكش، قام في ٢٦ أبريل برحلة إلى ميناء مجادور، وعاد منه في ١٥ مايو.

وتعد هذه الفترة من أيام على بك في المغرب ألعها، نظرا للرعاية التي أضفاها عليه السلطان، ولدينا عنها تقريران، أحدهما كتبه على بك نفسه، والثاني كتبه جيمس جرى جاكسون نائب القنصل البريطاني في مجادور، وطبقا لروايته، كان السلطان مهورا بمعارف على بك الفلكية، ومتحمسا له، ولم يغب عن اعتنائه لحظة واحدة، مما أثار بغيرة منجم القصر وحده، وشعوره بالخوف على مهنته، فحاول أن يدس بينه وبين السلطان ولكنه لم يوفق.

وتقرير جاكسون بالغ الأهمية، لأنه يصحح أخطاء على بك، ويظامن من مبالغاته، فإذا قال على بك أنه حقق في أدنى جنوب المغرب شعبية هائلة، وأنهم كانوا من أنصاره، ويجيئون لزيارته باستمرار، ذكر جاكسون نقيض هذه الرواية، وأشار إلى العداوة التي يكنها باشا مجادور لعلى بك، وحتى باشا مراکش نفسه. كان ينطوى على مثلها، وكان الأول منها يشك في تنكره، فجعله يزور القنصل الإسباني ليكتشفه، وبعث به إلى تاجر فرنسي كان يتصرف كممثل شبه رسمي لفرنسا، ولكن الأمرين لم يؤديا إلى نتائج حاسمة، فقد أجاب كلاهما بأنه يتكلم اللغتين كواحد من أهلها.

وفيا يتصل بباشا مراکش، وهو عمر بوسته، فإن على بك يقدمه بوصفه صديقا له، على حين يشير جاكسون إلى أنه كان يشك في شخصيته، فيضيق عليه، ولاحق الذين يترددون عليه ويطلبون أموالاً منه، ومنعه من زيارة الجنوب بحجة أن السلطان منع رحيله.

ويذكر جاكسون أيضا أن على بك اتخذ لخدمته إسبانيين كانا قد ارتدا عن المسيحية واعتنقا الإسلام، لأنه دين أسلافهم، وفي الوقت نفسه ينقلان إليه الأخبار، وكان بيته يضم رئيسا للخدم من أهل البلد، وهو الشريف هولاي أحمد، أو حامد وذكره على بك في الرحلة مرة واحدة، إلى جانب عدد من النساء.

ولما كان المغاربة ينظرون إلى الرجل غير المتزوج نظرة شك وسوء فقد حصل في طنجة على جارية، وتلقى أخرى هدية في فاس جارية سوداء، ولم يكن راضيا بها، ولم يخف اشتمزازه منها، بسبب ملامحها وتقاسيم وجهها، وتبن رانحتها، وفي مراكش تلقى جارتين أخريين هدية من السلطان، واحدة بيضاء والأخرى سوداء، حملها إلى بيته لينضها إلى البقية، ولكن الرجل كان زاهدا في الجنس، ويرتعب منه أحيانا، وبقية الجوارى محبوسات في البيت لا يتصل بهن سيدهن إلا نادرا، ومن هذا الاتصال النادر رزق بولد من إحداهن.

في مراكش عاد على بك يحلم بخطط الأمس من جديد، فكتب من مجادور إلى جودوى في ١٥ مايو ١٨٠٤ رسالة يؤكد فيها علي أن تنفيذ الخطة قد حان، ويجري بالمبالغة إلى آخر مداها فيقول: كل الباشوات هنا خدامي، وأنا سيد هذه الإمبراطورية، بالحب أو الخوف أو الاحترام، وظهوري على رأس ثلاثة آلاف جندي يجعلهم يسارعون بتقديم التاج إليّ، وأنا الآن اعتمد على عشرة آلاف، وأنفذ مذكرته لكم في الخطة دون أن أخرج عليها، وقد

احتاج إلى معاونة القوات الإسبانية فى سبته، فأرسلوا إليها ماترونه ضروريا من قوات، وليحملوا معهم ألفى بندقية، وأربعة آلاف «سونكى»، وألفى مدس وبعض المدافع من مقاسات مختلفة، ولاأحتاج الآن لمزيد من الأموال.

وفى الرسالة أيضا تكرر لما سبق أن قاله من أن الشعب ساخط، وأن أبناء هولاي سليمان عاجزون عن خلافته على العرش، ولكنه لايقدم أية معلومات عن حواراه مع السلطان، ولا من هم الذين سوف يشركون فى الثورة عليه، والجديد فيها أن قبائل دكالة وسرغنة وموظفو المخزن يحنون إلى عهد هولاي يزيد، ولم ينس أن يشير إلى أن زيادة القوات الإسبانية فى سبته يمكن تبريره بأنها لحراسة العدد الكبير من السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ويوجدون فى سجنها.

ويلح على المرء سؤال، عرض أيضا للباحثين الأوربيين بعامة، والإسبان من بينهم بخاصة: لماذا طلب على بك هذا القدر من الأسلحة لدعم ثورة لا توجد فى عالم الواقع؟ أترأه أراد أن يخلق جيشا خاصا يعمل لحسابه على الطريقة التى كان يعتمد عليها الشريف وزان، وبهذا تنمو شخصيته، أم ظن أن مجرد السلاح يكفى لإشعال الثورة ضد السلطان، ولعله — وهو ما أرجحه — كان واثقا أن السلاح لن يأتى فى النهاية، وبذلك يجد مبررا لفشل مهمته.

وقد اهتم جودوى — كعادته — بالأمر، وكتب إلى قواد الجيش فى جنوب الأندلس بأن يكونوا على استعداد لتقديم المساعدات

الضرورية حين تطلب منهم ، وتعزيز حامية سبته بعشرة آلاف رجل ، وأن يبرروا حركتهم هذه بأنهم فى مناورات . وأطلع رئيس الوزراء الإسباني الملك كارلوس الرابع على تقارير على بك ، وحدثه عن المكانة التى بلغها فى البلاط المغربى ، ولم يكن الملك سعيداً بما يسمع ، ولا راضياً عن وسائل الرحالة الإسباني ، وخائفاً من تدخل القوى الأجنبية وبخاصة فرنسا ، فحاول أن يضع رئيس وزرائه الخالم على أرض الواقع ، ورفض الموافقة على خطط باديا ومطالبه ، وتوقفت كل الاستعدادات .

وقد أسف المركيز سولانا على القرار الملكى ، ورأى أنه أضاع مجداً باذخا على إسبانيا والمملكة وجودوى ، وأن تنفيذ خطط على بك كان انقلاباً سدهش له أوروبا ، ويعلى من وضع إسبانيا وسياستها ، ويشار لذكريات سبعة قرون لاتمضى من العبودية والذل لأجدادنا ، فرضها عليهم هؤلاء الأفاقة الكريهين ، وتنتقم للضرر الذى تسببه لنا جبرتهم العابثة ، لطابعهم الوحشى الذى تمليه عليهم طبيعتهم أحيانا ، ولسماحهم لخصومنا الأوربيين بإقامة الكثير من المنشآت على شواطئهم لإيذاء تجارتنا وبحريتنا .

وكل هذه الاعتبارات يجب أن تدفعنا إلى ضرورة تأمين استقلالنا ، وأن نضع هؤلاء الممج فى مقام يستحيل عليهم فيه أن يمدثوا لنا ضررا . ولقد كان ممكنا أن يقوم الملكان الكاثوليكيان

[فرناندو وإيزابيل اللذان استوليا على غرناطة آخر معقل أندلسى عربى] أسلاف ملكنا بالقضاء على قطاع الطرق الكريهين هؤلاء، ولكن نقص حية الشعب، والبخل الذى لم يكن يرى أبعد من خزائن الثروة فى العالم الجديد، والدخول فى تحالفات مع قوى أوربا الأخرى أو ضدها، كانت عقبة فى طريق تدمير هؤلاء الهمج، الذين يواصلون إزعاجنا بقوة، منذ كارلوس الأول حتى اليوم، ومن الضرورى أن نلوح لهم دائما بقوتنا على نحو كاف، دون أن نصل إلى اجتثاثهم...» .

وأمضى جودوى صيف ١٨٠٤ يحاول إقناع الملك، ولكن هذا لم يعره سمعا، وبقي عند موقفه رافضا، وفكر رئيس الوزراء أن يعصى الملك، وأن يصدر قرارا بتنفيذها على مسؤوليته، ولكن مرض على بك أعفاه من هذا الأمر، وعلى أية حال إذا لم يستطع أن يرسل إليه قوات فلا بأس أن يرسل أموالا، وأصبحت القضية من أسرار الدولة العليا، ولم يكن يعرف بها أحد غير جودوى وعمروس وناديا، والمركيز سالونا على نحو أقل، ونائب القنصل الإسبانى فى مجادور. وقد تلقى على بك رسالة باعتراض الملك، وعشرة آلاف دوروس عن طريق نائب القنصل، لخدمة الأغراض التى يسعى إليها.

فى هذا الوقت كان على بك يقيم فى قصر السلطان الريفى فى سملاية، ويشعر بخطر إرسال السلاح والقوات، فلما تلقى خبر الاعتراض استراح تماما، وألقى مسؤولية الفشل على هذه الظروف،

إذ كان يستحيل عليه — فيما يرى — أن ينفذ مخططه على غير رغبة البلاط الإسباني، ولو أنه ردّ على هذه الرسالة، مظهرا امتعاضه من القرار، وملوحا بأنه كان من العرش قاب قوسين أو أدنى، وأن القرار وضعه في موقف حرج، وأنه بإزائه كما لو كان قد فقد عشر معارك حربية.

إزاء هذا القرار عاد على بك إلى فكرته الأساسية من الرحلة إلى قلب إفريقيا مخترقا الصحراء، ورأى ذلك أفضل من الرحلة إلى المشرق للقيام بالحج، فلكى يرحل إلى المشرق سوف يحتاج إلى إذن من السلطان، وطبقا لجاكسون حصل على إذن باحتراق جبال الأطلس في اتجاه الجنوب، وانضم إلى إحدى القوافل فعلا، ولكن باشا مراكش كان يشك في تصرفاته، فتدخل لدى مولاي سليمان، وألقى التصريح المعطى له، فلم تبق أمامه وسيلة لكى يتابع رحلاته غير أن يتجه إلى مكة.

وبينا باديا في مراكش يسترد عافيته ويقلب أموره، وقع حدث عالمي جعله يعيد حساباته مرة أخرى، ففي ديسمبر من العام نفسه توقفت العداوة بين فرنسا وحليفها إسبانيا لمواجهة إنجلترا، وفي مناخ ينضح غضبا من أسر إنجلترا أربع فرقاطات إسبانية، استطاع جوودوى أن يقنع كارلوس الرابع بالموافقة على خطة غزو المغرب، وتلقى على بك رسالة من عمروس يعلمه فيها بأن الملك منح القائد العام الإسباني صلاحية اتخاذ ما يراه في صالح الملكية في هذه الحرب

الجديدة ضد الإنجليز، وهم يتخذون من جبل طارق نقطة انطلاق، وهو إسباني ومن موانئ المملكة، وفيه يموتون أساطيلهم التي تحدث لنا خسائر لا تحصى، وتتخذ منه مراكزهم الصغيرة والكبيرة مرفأ تلوذ به، ويسبب لنا حصاره كثيرا من النفقات.

وفي اليوم نفسه وجه جودوى رسالة إلى الماركيز سالونا يعلمه فيها بأن «الرحالة إلى إفريقيا يصر على أن نقوم بعملية في تلك القارة يمكن أن تكون مفيدة جدا لإسبانيا في الظروف الحالية، وعادلة للغاية، وبرهن على كثير من الشجاعة والفتنة. وقد مُنح على بك رتبة بريجادير في الجيوش الملكية الإسبانية في ١٦ أغسطس ١٨٠٤، ولو أن أحدا لم يناده بهذا اللقب، إلا بعد ذلك بعشر سنوات خلال منفاه في باريس.

وضع على بك خطة جديدة لغزو المغرب، ضاع نصها ولم يصلنا، وأقرب الظن أنها قريبة الشبه بالأولى، وتهدف إلى إثارة قبائل منطقة تدلا على السلطان، وأن تنضم إلى سيدي العربي والولى بوجوده وسكان شرق المغرب في تمردهم، وأما الأسلحة المطلوبة فهي نفس ماطلبه في المرة السابقة.

وحاول على بك في رسائله أن يعطى الانطباع بأنه يتمتع بمكانة عالية في البلاط المغربي، وهو ادعاء تكذبه الوقائع، فقد تواجد مع السلطان في فاس ولكنه لم يلقه، وحين سقط السلطان مريضا، ولزم

سريره، واستدعى أطباء إنجلترا، وأغمى عليه فى إحدى صلوات الجمعة أمام الجماهير، وشاع موته فى المغرب كله، أشار عليه السلواوى رئيس الديوان أن يذهب إلى الشمال ليقضى على هذه الإشاعات. وعندما رحل السلطان فعلا لم يصحبه معه، ولو كان حفيا به، كما أذعى لنفسه لضمه إلى حاشيته، ولم تكن تخلو من الأجناب.

ومن جديد يتحدث على بك إلى جودوى عن الخلاف بين السلطان وسيدى العربى، وأنه فى انتظاره مع رجاله، ولكن العربى لا يحضره، وهو يوزع الذهب رشاوى على من يتوقع منهم الثورة، أو هكذا يقول، فإذا فشلت خطته مضى إلى الجزائر، ومنها سوف يلود بالجمال.

ولكن على بك لا يكاد يبلغ مدينة فاس حتى يحسّ باشا المدينة بغرضه، فينصحه أن يرحل بأسرع ما يمكن، ويسلمه رسالة مطولة من السلطان، ترجها على بك نفسه إلى الإسبانية، ووجدت فى أوراق جودوى، وقبل أن يبارح المدينة استطاع أن يقابل مولاي عبد السلام، فأعطاه هذا رسالتى توصية، واحدة لداى تونس، والأخرى لباشا طرابلس الغرب. وعندما وصل إلى مدينة وجدة بهدف أن يرحل إلى مصر علم بثورة سكان وهران على الحاكم التركى، مما جعل السير فى الطرق مستحيلا، وبخاصة أنه لم يكن يملك غير حراسة معدودة. وفى هذا الوقت بدأت موارده تنقص، وخاف على

نفسه من رجال البلاط، فقد ينقلون إلى السلطان شكوكهم ومخاوفهم عن هويته وغاياته، فلجأ إلى رئيس قبيلة صغيرة قريبة من وجدة، هم بنو أبي حمدون، وطلب منهم أن يمدوه بالحراس والحماية في وجهته إلى أراضي بنى سوس.

وعلى مسافة ميل من وجدة اعتقله فريق من الجند، بقيادة الديلمى، أرسلهم السلطان، ولديه أوامر بالألا يتركه يرحل قبل أن يتأكد من الأمان في الطرق التي سوف يسلكها، وغضب على بك من اعتقاله، وأرسل بريداً إلى مولاي عبد السلام، وعندما تلقى هذا رسالته سمح له بأن يرحل في ٣ أغسطس، ولكن ليس شرقاً إلى تلمسان، وإنما غرباً نحو طنجة، حيث يجب أن يأخذ الباخرة.

وفي حراسة الجند تابع طريقه نحو الغرب دون أن يدخل مدينة واحدة إلى أن بلغ العرايش، حيث دخلها في ١٧ أغسطس، وكان يحكمها محمد السلاوى وزير السلطان، وسبق لعلى بك أن تقابل معه في طنجة ومكناس والرباط، وإليه عهدوا بطرد على بك في ١٣ أكتوبر، وأن يمنع أى إنسان من حاشيته من الإبحار معه، ولم يكن أمامه إلا أن يطيع، وظلت زوجته مهنة المغربية على الشاطئ وحيدة، وقد حيل بينها وبين زوجها، على حين أصابته إغفاءة من الحزن العنيف لترحيلة بالقوة.

وفى ١٣ أكتوبر ١٨٠٥ صعد على بك مركبا يقوده الرئيس عمر، بعد ضجيج هائل، فى طريقه إلى طرابلس الغرب، وفى الطريق واجهت المركب بعض العواصف، وقامت بزيارة قصيرة لجزر قرقانة على مقربة من الشاطئ التونسى، وفى ١١ نوفمبر وصل طرابلس مع مجموعة من الحجاج كانت ترافقه، وخشى أن يكون الوزير السلاوى قد أخبر باشا ليبيا بأسباب طرده من العرايش، فاتخذ منذ البدء موقفا متحفظا. ومع ذلك استأجر بيتا كبيرا نعرفه من الرسوم التى خطها له بنفسه، ولم يلبث أن أقام علاقات مع القناصل والجاليات الأجنبية، ودون أن يفقد عادة التبجح، وأنه ينحدر من عائلة عريقة، أخذ يؤكد أن يوسف كرملى حاكم ليبيا، اتخذه أخا، وودعه باكيا، عند رحيله إلى الإسكندرية فى ٢٦ يناير ١٨٠٦.

وقد تركت طرابلس انطبعا ممتازا فى على بك، إذ وجدها عامرة بالمبانى والمتاجر وغيرها، على النقيض تماما مما رأى فى المدن المغربية، وأحس برد الفعل نفسه فى مينائى مودون ومورية اليونانيين، حين ضلّت السفينة وجهتها، وحملتهم خطأ إلى هناك. واضطر على بك أن يصطدم بالقبطان بعد أن صبر عليه طويلا، وكان بحارا قديما، عديم الكفاءة تماما، لا يكاد يفيق من الشراب، وداخله الشك فى هذا الرحالة الإسبانى، يحمل عددا من الآلات الفلكية، يحاول أن يسجل الطريق، وأن يهديه إليه، وفجأة ما كادت السفينة تقترب من الإسكندرية حتى غير وجهته، ويم إلى أعلى البحر، فواجهته

عواصف عاتية، فتوقف في ليماسول من قبرص في ٧ مارس. وظل على بك في قبرص أكثر من شهرين، ولم تكن له غاية دراسية فيها، فاكتفى بوصف الأطلال المتناثرة في الجزيرة، ووجد أسقفها يعيش كأمر مستقل تقريبا مقابل جزية يدفعها للخليفة العثماني.

وأخيرا وصل الإسكندرية في ١٢ مايو ١٨٠٦، ويقول عنها إنها كانت مدينة متواضعة، لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف جلهم من العرب، ولكنهم في العشرين عاما الأخيرة تجاوزوا مئة ألف نسمة، وقد أعجبه، وأثنى عليها، وعقد مقارنة بينها وبين مدينة بلنسية في إسبانيا، ولا ندري لماذا بقي فيها قرابة نصف عام، وبعدها اتجه إلى القاهرة عن طريق النيل، في رحلة دامت ثلاثة عشر يوما، وأوهم الذين فيها أنه مبعوث إسلامي في طريقه إلى مكة، فوجد من شيوخها وعلمائها استقبالا حسنا، ومن مصر عاود الكتابة إلى جودوى يحاول أن يُحيى في أعماقه الأحلام القديمة، ولهذا داوم الاتصال بالجالية المغربية التي تقيم في القاهرة، وكانت كثيرة العدد، ولها شيء من نفوذ بين رجال الدين وفي عالم التجارة.

وفي القاهرة وثق علاقته بمولاي سلامة المطالب بعرش المغرب، وكان شمال المغرب: تطوان وطنجة والعرايش وشاون ووزان، نادى به سلطاناً بعد وفاة مولاي يزيد، ولكنه هزم أمام أخيه سليمان، فلجأ إلى مصر، وأقام فيها عشر سنوات كاملة في انتظار اللحظة المواتية.

وفى القاهرة بدأت رحلة على بك تأخذ وجهة جديدة، فأصبح الهدف العلمى منها يحىء فى المقدمة، إلى جانب فكرة أخرى كانت تتردد فى أعماق جودوى ووشوش بها فى مسامع باديا عند بدء الرحلة، وهى إمكانية فتح طريق تجارى جديد بين إسبانيا والفلبين يمر عبر مصر، عن طريق الإسكندرية - القاهرة - السويس. وفى هذه، كما فى غزو المغرب، لم يستطع على بك أن يقوم بأى عمل جاد، واكتفى بأن يقدم معلومات مفصلة عن الإنتاج الذى رآه فى الأسواق والمتاجر فى طرابلس والإسكندرية والقاهرة.

وتكتسى روايته للأحداث السياسية فى هذه الفترة أهمية بالغة، فقد وصل القاهرة فى اللحظة التى بلغ فيها محمد على أوج توهجه، وشهد لحظة تمكنه نهائيا من الحكم، وتصبح شهادته وثيقة إذا عرفنا أنه، فيما يبدو، استطاع أن يكون على اتصال مباشر، ومتعدد، مع بعض أبطال ممثلى التغيير، مثل: قبودان باشا التركى، والسيد عمر مكرم، وحتى محمد على نفسه.

وذو أهمية بالغة أيضا حديثه عن الوهابيين فى الجزيرة العربية، ويقدم لنا موجزا لجذور القوى الكبرى التى لاتزال تواصل سيرها متوجهة فى عالم الإسلام اليوم: الاندفاع نحو التحديث، مع الإعجاب الأعمى بالغرب، ويمثله محمد على، والبحث عن هوية ذاتية إسلامية خالصة، تطمح فى العودة إلى ماض تراه مثلها الأعلى.

ومالبت الصدام أن وقع بين الاتجاهين ! .



لم يكن باديا أول أوربي يزور مكة، فقد سبقه إليها برتيا لودوفيكو، الفارس الروماني، في ١٥٠٢، والأمير الإنجليزي جوزيف برز ١٦٨٠، وكلاهما ترك رواية مليئة بالخرافات والأساطير والأراء الشخصية الجائرة، وبعدهما جاء نيبور الدانمركي عام ١٧٦٢ بتكليف من ملك الدانمرك، ولكنه زار شاطئ جدة، واليمن، والجانب الجنوبي من الجزيرة العربية من حضرموت إلى عمان، وفي هذه أخذ السفينة إلى بومباي. ولكن إلى باديا يرجع الفضل أكيدا في أننا نملك أقدم رسم وأدقه لموقع مكة الجغرافي، وللمشاهد الإسلامية القائمة حولها، تصويرا باليد ورسما تخطيطيا، وعندما جاء بعده الرحالة الإنجليزي السير ريتشارد بورتون بنصف قرن من الزمان، نسخ عددا منها، وأشار كثيرا إلى رحلة على بك.

ومن الحج عاد إلى مصر في يونية، وبعد أن أقام بها ١٥ يوما للراحة رحل إلى فلسطين، وفيها وجد أن ثلثي الرهبان من مواطنيه، ونصف نفقات الحراسة يدفعها وطنه، وقد تقتضى الظروف السياسية أن تدفعها إسبانيا كلها، حيث تتوقف بقية الأمم الكاثوليكية عن دفع نصيبها، لسبب أو لآخر. وفي أقل من أسبوعين قدم لنا وصفا تفصيليا للمعهد، ولكنية القبر المقدس، وحبرون، والناصرية، مع

رسوم تخطيطية، ومنها أرسل تقريرا إلى جودوى عن حالة الرهبان الإسبان، لايزال محفوظا في دار محفوظات بلدية برشلونة.

ومن فلسطين رحل إلى دمشق، وأمضى فيها اسبوعا، وترك لنا عنها وصفا لابأس به، وقد استرعى الانتباه أنه فى هذه الفترة من رحلته أخذ يتنقل بسرعة، وعودنا من قبل على البطء، فهو يقف فى كل مدينة شهورا، ولم يقدم لنا تعليلا أو تفسيرا، أو مانستطيع أن نلتقط منه السبب، ولكن توصلنا إليه عن طريق آخر، فقد أورد الرحالة الفرنسى الكونت فوربين فى كتابه عن رحلته إلى الشرق، وصدر فى باريس عام ١٨١٩، أنه حين زار محمد على فى تلك الأيام، وكان يحكم مصر وسوريا وفلسطين، حدثه عن شخصية على بك هذا، وأنه ليس عربيا ولا مسلما، وإنما هو أوربى جاءنا متخفيا فى هذا الزى، ووراء الاسم العربى، ونحن نعرف حقيقته، ويقول الرحالة الفرنسى إن محمد على كان يعتمد على شبكة قوية وهائلة من رجال المخبرات، وأن الخبر انتشر فى أنحاء الدولة، وأن مفتى دمشق عرف بالأمر أيضا، وهكذا وجد على نفسه، لأول مرة فى حياته، فى حاجة إلى أن يهرب ويختفى.

وهاربا من محمد على أصبحت القسطنطينية تمثل بالنسبة له حصن الأمان، فاتجه إليها من دمشق، وبلغت النظر أنه لا يكاد يحكى شيئا عن حلب الموطن المزعوم لأسرته، وفى عاصمة الخلافة أقام فى بيت رئيس البعثة الإسبانية مركز المنارة، وكان هذا صديقا

قديما له ، وخلال إقامته التي امتدت شهرا ونصف شهد التمرد الذي أزعج سليم الثالث وجاء بمصطفى الرابع خليفة ، لأن الأول كان من دعاة التحديث ، وكان الثاني معاديا له ، ويعتمد على العناصر الأكثر رجعية ، ولو أن خلافته لم تطل غير عام ، وأسف على بك لهذا التغيير ، وأعتبر تركيا أكثر البلاد التي رآها همجية .



في ٧ ديسمبر ودّع القسطنطينية ، وفي ١٩ منه عبر حدود الإمبراطورية العثمانية ، وبلغ فيينا في ١٤ يناير ١٨٠٨ ، وأقام فيها حتى ٢٤ فبراير ، ولا توجد أية معلومات عن إقامته هذه ، وعندما وصل ميونخ عانى ثانية من مرض الصفراء ، وكان قد اضطره في مراكش أن يلزم السرير ثلاثة أشهر ، وفي هذه المرة ظل الموت واقفا بالباب ينتظره طوال شهر ونصف .

وصل باريس يوم الأحد ١٧ من أبريل ، ولم يبق فيها فقد غادرها إلى إسبانيا ، وتوقف في بايونا على الحدود ، وبلغها في ٩ مايو ، ولما يشف من المرض ، ووجد مجلس البلاط الإسباني مجتمعا ، ورأى الملك كارلوس الرابع ، وقد أزيح عنه التاج ، وأصبح جوزيف الأول شقيق نابليون بوناپرت هو الملك ، وطبقا لعلى بك فإن كارلوس قال له : « .... إنك تعرف أن بلادنا قد احتلتها فرنسا ، وأن ثمة إمبراطورا إلى جانبي ، لم أعد أنا شيئا ، إذهب إلى الإمبراطور وتحدث إليه » .

وعندما أبدى على بك رغبته فى أن يتبع الأسرة الملكية المعزولة ردة عليه الملك: «لا.. لا.. من مصلحتنا جميعا أن نتخذه نابليون».

عاد باديا إلى وطنه بعد رحلة دامت قرابة خمس سنوات، ولشد ما وجد إسبانيا قد تغيرت!

ترك وطنه منهكا، انهارت كل مقوماته الأصلية، وتراجعت عاداته وتقاليده وأدبه أمام الغزو الثقافى الفرنسى، ونماذج الحياة الفرنسية، تركه مستقلا، ولكنه فى حشجة النزاع الأخير!

وها هو يعود إليه فيجده محتلا بقوات فرنسية، وإذن فقد كان الغزو الثقافى الفرنسى، وهزيمة المجتمع الإسباني تجاه التقاليد الفرنسية الزاحفة، طلائع الإحتلال العسكرى، ولكنه وجد مع جنود فرنسا وضباطها شيئا لم يره طوال حياته، وجد الشعب الإسباني، جلت الأحداث صداه، وصهرت الأزمت معدنه، فهو متحفز للوثوب والثأر، ينقصه السلاح والقيادة والتنظيم ولكن لاتعوزه روح الشجاعة والاستبسال والقداء، ولم تكن حرب الإسبان مع الفرنسيين قتال جنود تجاه جنود، وإنما كانت معارك اشترك فيها الشعب كله: الرجال والنساء، الشيوخ والشباب والصبيان، العمال والزراع والموظفون والطلاب، وكل الطبقات، وكان هتاف الجميع: الموت لفرنسا!

لكن الرحالة الإسباني العائد من الشرق لم يستطع أن يتفههم الأحداث ويتجاوب معها، ويندمج مع أولئك الذين لايشغلهم غير

تطهير بلادهم من الاحتلال الفرنسي وإنما كان همه تدوين رحلاته وتنظيمها ونشرها، واتصل بجودوى فقدمه إلى الإمبراطور نابليون الذى اهتم بالرحلة، وعهد إلى حاجبه أن يتحادث مع باديا حولها على مهل، وأن يكتب له تقريرا عنها. ولم يظهر نابليون أثناء مقابله للرحلة أى اهتمام بخبطه لغزو المغرب، وعلى حين يؤكد باديا أن الإمبراطور لقيه مرات عديدة، وأنه تحدث إليه بشأن الموضوعات الإفريقية، إلا أن مصادر أخرى وثيقة تقول إن لقاء الإمبراطور له لم يزد على مرتين.

بعد يومين من وصول باديا إلى مدريد فى ٢١ يولية ١٨٠٨ نشر مطبوعا يتضمن موجزا لحياته وملخصا لرحلاته، وصمت عن كل ما يتصل بالجانب السياسى لأن الظروف تغيرت، فقد اختفى جودوى راعيه وحاميه من المسرح، ووجد نفسه وحيدا، فقد كان لدى الحكام فى هذه اللحظات ما يشغلهم عن الاكتشافات الجغرافية فلم يعره أحد اهتماما. وعاش تسعة شهور بلاراتب، ثم عين رئيسا للإدارة المالية فى شقوبية فى ٢٥ سبتمبر ١٨٠٩، وبعدها أصبح حاكم المقاطعة، وحوله قامت إشاعات لاحصر لها، فقد اتهمته الجماهير بأنه يهودى تارة، ومختون، وأنه كان مسلما، وتارة أخرى بأنه ماسونى وزندىق، وصمت هو دائما، ولم يشر أبدا إلى أنه من قطلونية.

وفى ٥ أبريل ١٨١٠ نقل إلى قرطبة، واهتم بتحقيق إصلاحاته ومشروعاته، وأهمها الإبحار فى الوادى الكبير بين قرطبة وإشبيلية،

وأدخل فيها زراعة القطن والبنجر والبطاطس، ومع ذلك فقد اصطدم مع الجماهير أيضا، واتهموه بأنه مذبذب بأنه مذهب إلى أموال الأديرة، وعماكم التفتيش، وتوجهوا بشكاواهم إلى جوزيف بونابرت في مدريد، فأصدر قرارا في ١٥ يونية بنقله إلى العاصمة ليكون تحت الطلب. ثم عين عضوا في بعثة مهمتها التفاوض مع الثائرين في بلنسية وإخضاعهم للفرنسيين، ولكنها فشلت وعادت إلى مدريد دون أن تحقق شيئا، فظل في البلاط بدون عمل محدد، ثم ألقى القبض عليه بتهمة اختلاس المال العام، ولكن مركز المنارة صديقه القديم توسط له فأفرجوا عنه.

إزاء هذه الظروف فكر أن يستغل عرضا كان نابليون قد اقترحه عليه قبل ذلك بأربعة أعوام، وذلك بأن يذهب إلى باريس ويعد رحلته للنشرو فذهب إليها في أواخر عام ١٨١٢، في اللحظات التي عاد فيها نابليون مهزوما من روسيا، وكان يحمل أمرا من الإمبراطور بالذهاب إلى باريس لكي يحمر رحلته ويترجمها ويطبعمها، ولكن تنفيذ الأمر لم يكن بالسهولة التي توقعها، لأن تغير الظروف السياسية جعل من الضروري إعادة النظر في الأمر من جديد. وفي ١٣ نوفمبر ١٨١٣ درست لجنة من العلماء الفرنسيين ملخصا قدمه لها على بك، وأوصت بالموافقة على النشر، وأبلغه وزير الداخلية بأن وزارته سوف تحصل من كتابه على مئتين وخمسين نسخة بسعر ستين فرنكا للنسخة الواحدة، على أن يخرج العمل كاملا خلال عام ١٨١٤.

أهدى باديا الكتاب إلى لويس الثامن عشر، مطريا له ومشيا عليه، ووصفا حكم نابليون قبله بالهمجية، وصدرت الرحلة في ثلاثة أجزاء بعنوان: «رحلات على بك العباسى فى أفريقيا وآسيا خلال الأعوام ١٨٠٣ - ١٨٠٧»، وألحق بها أطلسا، وخمس خرائط، وبمجموعة من الرسوم تبلغ ثلاثة وثمانين. ولم يكشف عن اسمه الحقيقى، ربما ليترك الباب مفتوحا أمام عودته مرة ثانية متخفياً إلى البلاد التى تكلم عنها، ومع ذلك رفع فيما بعد تقريراً إلى الملك أسماه «ملاحظات عن الفارس باديا» تحدث فيه عن زوجه وأسرته وشجرة النسب الفرنسية النبيلة التى ينتسب إليها، وتلاحظ أنه أضاف إلى اسمه العربى لقب «العباسى» عندما طبع رحلاته، وهو ما لم يجرؤ عليه لافى إسبانيا ولا خلال طوافه بالعالم العربى.

وفى العام نفسه، ١٨١٤، وكان خصباً فى التغيرات السياسية وثق عرى الصداقة مع أحد أعضاء معهد كلود إزوار، ويدعى لىسل دى سال، أرمل فى الثانية والسبعين من عمره، ويسكن بيتاً كبيراً فى ٩٥ شارع سيفر، ويضم مكتبة ضخمة تحتوى على ستة وثلاثين ألف كتاب. وكان لهذه الصداقة نتائج مذهلة غير متوقعة، فقد تزوج العجوز من أسونثيون ابنة على بك، وهى فى العشرين من عمرها، فقوى بذلك المركز الاجتماعى لهذه الأسرة اللاجئة.

لكن لا السعادة الآسرة، ولا الأيام العاصفة التي مرت بها فرنسا جعلته يتنازل عن مشروعاته، ففي ٢٢ أكتوبر ١٨١٥ أرسل إلى وزير الخارجية الفرنسي ريتشليو مذكرتين، أولاهما عن الخدمات التي أداها لفرنسا في المشرق، والثانية عن استعمار أفريقيا، وكان يظن أن نص هذه الأخيرة قد ضاع، ولكن عُثِرَ عليها أخيراً، ونشرت فعلاً، وفيها يرى أن استعمار فرنسا للمغرب أكثر فائدة من استعمار أمريكا الجنوبية، لقربه، وسهولة الوصول إليه، ووفرة ما ينتجه، وما يمكن أن ينتجه في المستقبل، من السكر والطباقي والنيلة والكاكاو والبن والقرمز وغيرها، والمياه الذاتية من ثلوج الأطلس كافية لإرواء مساحات شاسعة في سهله الجنوبي، وهو جهل فقطع منه بجغرافية المغرب، إلى جانب مناجم الذهب في السودان، وهي مصدر ثراء لا يتفد.

وتجنى صعوبة فتح هذه البلاد — فيما يرى — من أن غزوها من دولة مسيحية سوف يواجه ضرورة بمواجهة إسلامية شاملة يتحول فيها كل السكان المسلمين إلى جنود مقاتلين، وإذن فللوصول إلى هذه الغاية يجب أن نجد أميراً مسلماً مستثيراً (!!) يقيم دستوراً يتفق مع عادات البلد وتقاليدها ودينها، ويتنازل عن جزء من أرضها لدولة أوروبية. وحتى مثل هذا الأمر لن يكون سهلاً، وقد حاول الإنجليز القيام بهذه الحملة فكانت النتائج سلبية (يشير بالتأكيد إلى هزيمة الإنجليز الساحقة أمام المصريين في موقعة رشيد عام ١٨٠٧)، كما أن الأمراء الذين

تربوا في بلادهم الأصليون تغلب عليهم الرذائل الأربعة: الكسل، وعبادة اللذة، والبخل، والطفیان.

وقد اقترح الجنرال باديا - وبهذا اللقب وقع التقرير - أن يقوم بهذه المهمة أوربى يتظاهر بالإسلام، وألح إلى أحداث المغرب التي أومأنا إليها من قبل، وأكد أنه لا يزال يتراسل مع هولاي عبد السلام، الذي اعتذر له عن قرار السلطان بطرده، ودعاه إلى أن يعود إلى المغرب، وعرض عليه أن يرسل له نساءه وجواريه حيث يقيم إذا أراد. ولكن ريتشليو الفرنسى ليس جودوى الإسبانى، فلم يشارك الرخالة أحلامه، وأدرك منذ البداية الطابع الخيالى وغير الواقعى الذى كان يغلب على التقرير فيما يتصل باستعمار أفريقيا، وفى أحسن الحالات لم يظهر أى اهتمام بالموضوع.

وعاد باديا ثانية إلى الموضوع فى أبريل ١٨١٦، إذ كتب إلى ريتشليو حين قرأ فى الصحف اقتراح شاتوبريان بتكوين حملة صليبية للقضاء على القرصنة فى شمال أفريقيا ومؤكدا أن تنفيذ مشروعه «سوف يعطى فرنسا مستعمرات أفريقية غنية، أثنى مما كانت للإغريق أو الرومان أو القوط، دون أن يكلفها هذا نقطة دم واحدة».

وكما هو الحال فى إسبانيا وجد من يأخذ أحلامه مأخذ الجد، بل وجد من يلوئها له، وبخاصة صديقة الكولونيل هرنبيه، ويشير فى كتابه «ذكريات حرب» إلى أن لويس الثامن عشر استقبل باديا

بجفاوة فى لقاء خاص وقال له: «أعرف شعور بونابرت ونواياه فيما يتصل بالمهمة العظمى التى قمت بها، وهى اكتشاف الطريق إلى الهند، وأوامر نابليون رائعة، ولكن ليس من السهل تنفيذها، وسوابقها برهنت على أنه إذا كان فى وسع أحد أن يحققها فهو أنت. ولهذا أعلمك يا جنرال ألا تتغير الخطة وإنما تمسك بها، ونفذها باسم ملك فرنسا، واعتبر هذا تكليفا منى، وخلال أيام قليلة فإن وزيرى سوف يصدر الأوامر اللازمة، وعليك بالصمت المطلق.. إنك تفهم ضرورته».

وفى ٢٣ سبتمبر ١٨١٦ توفى ليسل دى سال صهر باديا، فأقام هذا فى قصره بحجة تسوية الأرملة الصبية، ومالبت أن واجه مفاجأة تامة، فقد اكتشف أن صهره لم يترك عمليا أية ثروة باستثناء المكتبة، فحاول أن يبيعها إلى بابيه أمين المكتبة الملكية، ولكن المفاوضات لم تصل إلى غايتها.

فى هذا العام انتشر كتاب باديا عبر أوروبا كلها، فقد ظهرت الترجمة الإنجليزية فى جزئين تحمل عنوان: «رحلات على بك فى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا بين أعوام ١٨٠٣ و١٨٠٧»، مع الخرائط والرسوم التى خطها المؤلف بنفسه، وفى الصفحة الأولى تحذير من الناشر بأن الرحلة حقيقية، ورسالتين تؤكدان هذا المعنى، أحدهما من صهر باديا ليسل دى سال، وفقرة من رحلة شانوربان «الرحلة من باريس إلى

القدس» يشير فيها إلى أنه التقى مع على بك في الإسكندرية، ورغم أن هيلين ماريا وليامز راجعت الترجمة بناء على طلب الناشر، فقد تضمنت كثيرا من الأخطاء. وفي الوقت نفسه ظهرت الطبعة الألمانية في جزئين أيضا، وصدرت في مدينة وايمر.

وجاءت الطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء، وصدرت عامي ١٨١٦ - ١٨١٧، وكانت بعضا من سلسلة كتب عن الرحلات، وتضمنت مقدمة عن حياة المؤلف، وصفته بأنه أمير من ممالك مصر، وأحد أربعة عشر بيك يكوونون الإرسقراطية فيها، وتشير إلى أنه ولد في تقليس من ولاية جورجيا في روسيا، ثم أسره جماعة من همج القوقاز، ولهذا جاب فارس وآسيا الصغرى، ثم دخل في خدمة سليمان بك حاكم مصر، وفي بيت هذا صنع ثروته، واختير وهو في الثانية والعشرين من عمره عضوا في المجلس المصرى الأعلى، وكان يتألف من ٢٤ بيك، وبالطبع نحن بإزاء تاريخ خيالى ابتدعه كاتب المقدمة، وقد وجد نفسه مضطرا أن يقدم شيئا عن حياة المؤلف، وكان يجهلها تماما.

أما الطبعة الإسبانية فلم يقدر لها أن تنشر إلا بعد أن عم الكتاب كل أوروبا، فنشر في بلنسية في ثلاثة أجزاء عام ١٨٣٦، وفي عامي ١٨٨٨ - ١٨٨٩ تمت ترجمته إلى اللغة القطلونية التى يتكلمها شمال شرقى إسبانيا، ثم توالق طبعاته بعد ذلك فى كل اللغات. وكل

الطبعات الأولى أخفت اسمه الحقيقي، وأول طبعة أظهرت شخصيته هي التي تمت في مدينة بلنسية عام ١٨٣٦.

ولكن الفوائد المادية التي جناها باديا من هذه الطبقات محدودة للغاية، حتى أنه لم يستطع أن يرفق مع تقريره إلى ريتشليون نسخة من رحلاته، وقد طبعت، لأنه لا يملك واحدة منها، وأول مرة رأى فيها الترجمة الإيطالية في البندقية عام ١٨١٨، وكان حتى هذا التاريخ يجهل وجودها.



هل نفترض أنه كان في موقف سيء اقتصاديا، كما صنع كل الذين ترجوا له، ولهذا أمطر الحكومة الفرنسية بالعديد من الخطط الجديدة؟. ذلك شيء لا يمكن تأكيده، لأن المتفرنسين الإسبان حين غادروا وطنهم إلى فرنسا مع جيش الاحتلال لم يخرجوا أيديهم فارغة، أو جانباً كبيراً منهم على الأقل، إلى جانب أنه احتفظ في باريس بعلاقات حميمة مع عدد من الشخصيات، وبخاصة المثقفين منهم، كما أن ترقل ابنته حسن موقفه نسبياً.

وبعد أربعة أعوام من الإقامة في باريس بلا عمل، ومع أسرة عليه أن يتولى أمرها، طلب في عام ١٨١٧ معاشاً من الدوق ريتشليون فلم يتلق ردًا، فجدد الطلب متعجبا من أن خطته لاستعمار أفريقيا لم تدرس، ومتحدثا عن الخدمات التي قدمها لفرنسا، وأن

رحلاته السابقة تمت لحسابها وليس لإسبانيا، وكتب له: «أسرتي تعيش في البؤس، على حين أن فرنسا وتجارتها يجنون يومياً الملايين، ثمرة عملي وخدماتي». ولم يجد هذا الطلب ردّاً مرضياً، لأن ريتشليو هاجر خلال الثورة والأمبراطورية، ولما عاد ثانية مع لويس الثامن عشر إلى باريس لم يشعر بأى ميل نحو الإسبان المتفرنسين، ممن خانوا ملكهم الشرعى ووطنهم، ولم يظهر أى ميل أو تأييد لتمويل خطط خيالية، ويمكن فى الوقت نفسه أن تثير غيرة القوى الأوربية العظمى ونههما.

وفى خريف ١٨١٧ استجاب باديا لنصيحة جديدة، وبدأ يطرق أبواباً أخرى، ذهب إلى وزير البحرية الكونت هوليه فاستقبله بجفاوة، وكذلك فعل الكونت ديكاز وزير الشرطة، وكلاهما كان من كبار عصر الإمبراطورية، ولا بد أنها عرفاه، أو سمعا به على الأقل. وعرض على موليه خطة لاكتشاف أفريقيا تبدأ بالحج إلى مكة، وهناك ينضم إلى قافلة تعبر البحر الأحمر، وبعدها يتوجه إلى قلب أفريقيا، فيبلغ تنبوكتو، ويخترق النيجر والسنغال متجها إلى الغرب حتى يبلغ سان لويس على شاطئ الأطلنطى. وقد أخضع موليه الخطة لدراسة يقوم بها معهد فرنسا، وكانت اللجنة الثلاثية التى درستها من أصدقاء باديا، فجاء ردهم يؤكد أهمية الرحلة، ويشير إلى صعوبة تنفيذها أيضاً، ولو أن باديا— فى يرون— قادر على مواجهة هذه الصعوبات، وكانت الخطة كما تضمنها الأمر الملكى الصادر بها على النحو التالى:

● أن يبحر من وسط أفريقيا من الشرق إلى الغرب .

● وأن تستغرق ثلاث سنوات، الأولى في الحج إلى مكة،  
والأخريان في اختراق أفريقيا، فيدخل من الحبشة، ويمر بدارفور،  
ويبحر النيجر، ويخرج من السنغال .

● أن يهب الدولة الفرنسية الأوراق والمجموعات والمذكرات  
والخرائط والرسوم التي قام بها في الرحلات السابقة، أو يقوم بها في  
هذه الرحلة، للمناطق المختلفة التي مر بها .

على أن تبدأ الرحلة في يناير القادم وتنتهى في يناير ١٨٢١ .

وفيا يتصل بالطلبات التي تقدم بها لباديا له ولأسترته، وفي ضوء  
الفوائد التي سوف تجنيها فرنسا من رحلته، تقرر تعيين ابنه، وكان  
ضابطا في سلاح المدفعية الإسباني، في الجيش الفرنسي، بنفس  
الرتبة وفي نفس السلاح، وأن يصرف لزوجته خلال الرحلة، أو إذا  
ترملت، ثلاثة آلاف فرنك سنويا من ميزانية المستعمرات، وفي حالة  
موتها تدفع لابنه الأصغر خوويه مادام حيا . ويصرف لباديا نفسه  
عشرة آلاف فرنك مرتبا سنويا، ويدفع له المبلغ الخاص بالعام الأول  
مقدما في اللحظة التي يبدأ فيها الرحلة، والخاص بالعامين الآخرين  
يدفع له في عكا في فلسطين بالعملة الذهبية التركية . ويصرف له  
أيضا من ميزانية المستعمرات الآلات والأدوات التي يحتاج إليها في  
رحلته .

ويلاحظ أن ما أنفقته فرنسا عليه قليل جدا بالنسبة لما صرفته إسبانيا عليه، وكذلك خلت الاعتمادات الفرنسية من هدايا، أو رشاوى إذا شئت، للحكام في البلاد التي سوف يمر بها، على حين أنه في الرحلة الأولى حمل هدايا ضخمة لسلطان المغرب، وأموالا أخرى كثيرة وزعها على المسؤولين، وأنفق جانبا محدودا في شكل صدقات أعطائها للفقراء والمساكين تظاهرا بالصالح والتقوى.

وما إن وافقت فرنسا على رحلته حتى عاد إلى أحلامه القديمة من جديد، وأن كارولس الرابع ملك إسبانيا أجهض خطته، ولو استجاب له لكان حاكما على أفريقيا منذ رحلته الأولى، أو على الأقل لعاش في أوربا غارقا في الثراء، وقد دفعته أحلامه إلى الكذب كثيرا، وتلاشى الخط الفاصل في ذهنه بين الآمال والواقع، وامتد هذا حتى إلى نسه، فأخذ يكتب لموليه عن فرنسا «موطن أسلافه»، وراح يذكره بشجرة نسب كان قد اخترعها.

لكن من الحق أيضا أن نذكر أن فرنسا لم تنخدع بأحلامه، وكان اهتمامها بخطته محدودا للغاية، ولعلها عادت إلى قنصلها في إفريقيا ليوافوها بما حققه في رحلاته السابقة. وربما كانت استجابتها مجرد مقامرة، مقابل نفقات زهيدة، إذ لم يكن من الفطنة في شيء إرسال رجل تجاوز الخمسين من عمره، وصحته معتلة، لكي يخرق إفريقيا، والرحالة الشبان الذين سبقوه إليها كثيرون، وذهبت بأرواحهم. ولعلها رأت فيها تمهيدا لما كانت تهدف إليه سرا، وهو:

اكتشاف طريق أرضى إلى الهند، والإعداد لاستعمار افريقيا، والبحث عن أسواق فى القسطنطينية ومكة، وكان باديا يحلم بتحقيق هذه المشروعات الثلاثة رغم ما بينها من تباعد يبلغ آلاف الأميال.



خرج باديا من باريس فى أواخر شهر ديسمبر ١٨١٧، وحمل اسم الحاج على أبو عثمان، وتشير الكنية إلى أبوته لابنه عثمان، الذى ولد فى المغرب بعد رحيله عنه، ويمكن متابعة خط سيره من رسائله التى كان يكتبها إلى هوليو أو أسرته، فن ميلان كتب إلى زوجه فى ١٨ يناير ١٨١٨ يؤكد لها أن الغرض من رحلته فى هذه المرة أن يضمن مستقبلها اقتصاديا، وفى ٢٣ وصل البندقية، ومنها كتب إلى هوليو عما أحدثته المدينة فى أعماقه: «إن نظرة عجلنى كافية لكى يعرفها، فليس فيها علوم ولا أدب يستر عيان الاهتمام».

وما إن وصل على بك أبو عثمان القسطنطينية فى ١٩ مارس حتى تقدم إلى سفير فرنسا فيها، الماركيز ريفير، وفى الحال تفاهما، وتوثقت بينها العلاقة، ويقول عنه فى رسالة له: استقبلنى بحفاوة، وهو شخص ذكى ومتفان فى عمله، ولذا رأيت من المناسب أن أخبره بسرى كى يتصرف وهو عارف».

ومن جانب آخر أعطى السفير انطباعه عن الرحالة فى رسالة بعث بها إلى هولييه: «رأيت الرحالة الحاج على أبو عثمان يدخل مكتبى، وفيما بعد تعرفت عليه جيدا، واستمعت إليه باهتمام حقيقى، وأعجبت بأفكاره عن الحاضر والمستقبل، وشغلت به، وبإقامته، وبخطط رحيله، وكان يريد أن يذهب إلى حلب وطرابلس الشام، وأمددته بما هو مقرر له، وبذلت جهدا كبيرا فيما يتصل بأمنه، وذكاؤه ومعارفه تبعث على الاطمئنان فيما يتصل بهذه الرحلة الطويلة والشاقة».

وفى ٢٦ أبريل عبر على بك البوسفور، وفى ١٣ كان فى حلب، وفيها ألقى رحلة كانت مخططة من قبل لزيارة جبل لبنان، حتى لا يتأخر عن اللحاق بقافلة الحجاج، وكانت غايته من زيارته أن يدرس طبيعته الجيولوجية ونباتاته، وقبل ذلك أن يلقى ليدى سوسى هيستر ستانهورب، حفيدة الرحالة بيتس، ورحلت إلى المشرق عام ١٨١٠، وسكنت قرية جونى، فى جانب من لبنان الوصول إليه عسير للغاية، وسمح لها العثمانيون بأن تحيط نفسها بحرس شخصى، وأن تمارس سلطتها على سكان الجبل، وكان ذلك مما يهم على بك بطبيعة الحال فهو يريد أن يتعرف على هذه المغامرة التى حققت جانبا صغيرا من طموحاته الكبرى، وأحلامه بأن يكون على رأس أرض إسلامية واسعة. وحاول قنصل فرنسا فى حلب أن يحقق له هذه الغاية، فتبادلا الرسائل، ولكن لقاءه بها لم يتم.

كان قنصل فرنسا في حلب صديقا لعلى بك، وسبق أن التقيا في قبرص عام ١٨٠٦، ولذلك استضافه في بيته في حلب طوال إقامته بها، وبلغت واحدا وعشرين يوما، وفي ٣٠ يونية خرج على بك في طريقه إلى دمشق، وفي طرابلس قبض من القنصل المبلغ الذي كان مقررا أن يتلقاه في عكا من عملة صغيرة، مما أضع عليه عند الاستبدال مبالغ كبيرة، ولم ينتبه لهذا الأمر إلا فيما بعد.

وفي ٤ يولية وصل إلى دمشق، ووجد مفاجأة سيئة في انتظاره، ذلك أن الطبيب الفرنسي شابوسو، وعرفه في الرحلة السابقة، كان غائبا عن المدينة، فاضطر أن ينزل في دار مع بقية الحجاج ويسميا «الجهنمية»، وقد توقع أن يسأل الطبيب عنه، وأن يبحث له عن منزل مريح، فلما افتقده غضب عليه، ولكن القنصل رينيو تدخل في الأمر، وبين له أن الطبيب كان غائبا عن دمشق لمرضه، فقد وقع من جواده فوق الصخور، وهو في التاسعة والسبعين من عمره، فلزم السرير، وبقي تحت رعاية الطبيب، ولذلك غاب عن دمشق أربعين يوما.

وفي تلك الأيام ظهرت علائم المرض على على بك، وفي ٢٣ كتب إلى هولييه: إن تعاور الجوع على بدنه، مع تقدم السن، أوهن صحته، وأصابه بالدوستاريا، مع مظاهر توميء بالخطر، وأنه يعالج نفسه، وتلقى من مصرفي يعرفه في لندن بعض الأدوية، دون أن يحتاج إلى طبيب، إذ ليس في دمشق كلها غير طبيب واحد، وهو ملازم الفراش لمرضه، ولم يعد يذهب إلى عيادته.

ولكن بعد ذلك بثلاثة أيام اضطر إلى أن يرسل إلى شابوسو يخبره بحالته، ولما رأى هذا خطورتها قرر أن يذهب إليه، رغم أنه ملازم الفرائش، ومتقدم فى السن، لكى يكشف عليه.

وكارثة أخرى كانت تنتظره أيضا. فقد استولى أحد خدمه على كيس نقوده، وبه ٣٢٠٠ قرش، حين كان خارج البيت يودى صلاة الجمعة فى مسجد المدينة، وقبض على الخادم أثناء هروبه فى حماة، ولكن على بك لم يتلق من المبلغ غير ألف قرش فقط، أما الباقي فدفع شكرا للباشا، وللآخرين الذين قبضوا عليه. وبعد أن دفع نفقات القافلة التى سوف تحمله إلى مكة لم يبق معه غير ثلاثة عشر ألف قرش، فأحتاط لنفسه، وطلب من هوليو أن يأمر قناصل فرنسا بأن يدفعوا له ألفى فرنك، إذا فاجأته سرقة أخرى حتى لا يبقى بدون نفقات.

وفى ١٧ من أغسطس خرجت القافلة من دمشق، وكان على بك يتوقع أن يعيد إليه هواء الصحراء الجاف صحته، فكتب إلى أسرته: «المناخ الساخن يعيدنى شاباً، ولكن الطبيب شابوسو لم يكن يشاركه تفاؤله، فكتب إلى هوليو: يعزبنى أن أراه وقد استرد صحته على نحو يسمح له بأن يواصل رحلته، ولكنى لا أستطيع أن أخفى على معاليكم المخاوف التى تتابى فيما يتصل بالنتائج، فإنى أجد الرجل منهكا، سواء فيما يتصل بضعف مزاجه، أو بعمله الذى لا يتوقف، وبخاصة أنه يسهر جانبا طويلا من الليل يرد على عدد

لا يحرص من الرسائل، يصنع ذلك ليلا لأن البيت الذي ينزله مشترك بينه وبين حجاج آخرين، فضلا عن الحر البالغ الذي نعانيه، ومتاعب رحلة طويلة ومرهقة، وكل ذلك يجعل مشغولا عليه جدا إلى أن تعود القافلة».

وما إن بدأت القافلة سيرها حتى لزم باديا سريره لأن الدوستاناريا هجمت عليه من جديد، وأخذ خدمه يعالجه، ويهتمون به، ولكن الألم أخذ يزداد، وبعد يومين توقفت القافلة كمادتها في هوزرب إلى جانب الجولان، وهو مكان تجتمع فيه قوافل الحجاج الكبرى كي تتمون قبل أن تعبر الصحراء الكبرى، وفي هذا المكان التقى باديا أيضا بالرحالة البولندي رنزيفوسكى، الذي أرسلته ملكة ألمانيا ليشتري لها خيولا عربية أصيلة، وقد أخذ بمظهر هذه المحطة والقوافل، تتكون من أناس ينتمون إلى بلاد مختلفة، وظهر في خيمة باديا يرتدى ملابس عربية، وعنى به خلال عدة أيام، دون أن يستطيع إقناعه بالعودة إلى دمشق كما تتطلب صحته.

وبعد عشرة أيام من الراحة أقلعت القافلة في ٢٨ أغسطس، وعندما توقفت ليلا كانت صحة باديا قد ساءت، ولم يبق أمامه إلا أن يفرغ ما في بطنه، وأخذ وحيدا يحرق أوراقه، وقاوم يومين والقافلة تواصل سيرها نحو الزرقاء على ضفاف النهر الذي يحمل الاسم نفسه متفرعا من نهر الأردن، وفي هذا المكان الأخير أحس بقرب النهاية كأمير لامفر منه، فبدأ ينظم أموره، ويتخذ قراره فيما يتصل بالأموال

التي يحملها، وكلف خادميه ياسين وإبراهيم أن يسلمها كل حاجاته إلى قنصل فرنسا في دمشق، واختار الشيخ الجزار منفذا لوصيته، وطلب منه أن يقسم الأموال المعدنية التي معه إلى نصفين، بين عبد أسود كان يصحبه، وأن يوزع النصف الآخر على فقراء مكة والمدينة. وفي المرحلة التالية، بين الزرقاء وقلعة البلقاء، كان على القافلة أن تسرع بأقصى إمكاناتها، وفي منتصف الليل وجد على بك نفسه في حالة إغماء فخلع خاتمه وكان يتخذة للتوقيع، وأعطاه لخادميه، وأغلق هذان الخيمة عليه، وعندما فتحتها في صباح اليوم التالي وجداه جثة هامدة.

كانت القافلة تضم مجموعة من المغاربة الذاهبين إلى الحج، وقد تابعه هؤلاء منذ اللحظة التي رأوه فيها يخرج مريضا من دمشق، رأوه غنيمة محتملة، يمكن أن يستولوا على أملاكه إذا فاجأه الموت، وعندما علموا بذلك سطوا عليها، وأخذوا يسبونه، واتهموه بأنه مسيحي متخيف وساحر، ومع ذلك دفن على الطريقة الإسلامية في قلعة البلقاء، في الجنوب الشرقي من الأردن الآن.

هل مات باديا مسموما؟

لقد شك هو نفسه قبل أن يموت في هذا، إذ يقول في آخر رسالة كتبها إلى قنصل فرنسا في دمشق في ٢٣ أغسطس: «قبل خروجي من دمشق بثلاثة أيام زارني الطبيب شابوسو، وأحضر لي معه عدة قراطيس من «روندي» عمص، أخذت واحدة فسيبت لي ألما مزعجا،

وبجاملة له واصلت حتى الرابعة، وهذه كانت كافية لكى أضع الموت فى فى بأصبعى، فتركتها، ووجدت نفسى فى حالة إنناك مطلق» .

«وبدون شك كان هذا العلاج يحتوى سمآ دون أن يعرف شابوسو الغلبان أو يشك، وجاءت الضربة — فىا يرى — من راهب إسبانى فظ كان صديقا حميا لزوجة شابوسو، ومن هذه الشيطانة أيضا، وهما يعتقدان أنها بهذا صنعا فضلا عظيما. ومع الرسالة أرسل لكم بقية هذه القراطيس، إذا عشت احتفظ بها حيث هى عندك، وإذا مت أرسلها مع خطابى إلى مسيو هوليه .

وثمة رواية أخرى عن موته ترويهالليدى ستانوب، وظلت تتبادل الرسائل معه حتى موته، وأبدت رأيها حوله فى حوار مع الكونت هرسيللوسكرتير السفارة الفرنسية فى القسطنطينية، سأها :

— ألا أستطيع مساعدة الرحالة التمس على بك ؟

وعندما سمعت ستانوب بالاسم تأثرت ورددت :

— لقد أثرت كل مواجعى، مكين على بك !، كم أنا حزينة له، ولكن بصراحة (أضافت بعد لحظة صمت) هل لديك أوامر بأن تتحدث إلتى عنه ؟ .

— أبدا، أكرر ياسيدتى أن زيارتى لك لا غاية وراءها أبدا، ولا تمثل جانبا من واجباتى، وأسئلتى حول على بك تحيى منى بوصفى رجلا يهتم بقوة بنتائج رحله الأخيرة .

— حسنا. ياسيدى، أعتقد أن الله أرسلك إلى لأتحور من ألم حقيقى، وأثق فيك ثقة مطلقة. عندى رسالة كتبها على بك قبل أن يموت، وقرطاس من «الروند» المحمص مسموم، واعتقد أنه سبب موته، وأودّ أن أرسل الأمرين، الرسالة والقرطاس، إلى وزير بحرية فرنسا، وحتى الساعة. لاأثق فى أحد، عدنى بأن تحملها معك عندما تعود إلى باريس، وتنفذ إرادة الرحالة الأخيرة.

فى البدء فكرت أن موته كان انتقاما من المسلمين، لأنه فى رحلته الأولى التى نشرت فى باريس أزاح النقاب عن أسرار مكة، ووصف بدقة قبر محمد، واستطاع أن يحقق هذا متخفيا وراء زيّه الشرقى، فأرادوا عقابه على فضوله هذا، ولكنى عرفت أخيرا ألا شىء من هذا، وهو نفسه ينسب موته إلى أسباب أخرى».

وطبقا لها، فإن على بك «كان ضحية سم الأوربيين وحدهم»، ويفهم منها أن الإنجليز هم الذين قاموا بهذا.

ويعطى الكولونيل هرنيه رواية أخرى شبيهة، ويتهم الإنجليز فى المقام الأول، وطبقا له فإن لويس الثامن عشر حذّر على بك: «شك فى بعض الأجانب، والإنجليز منهم بخاصة.. إفهمنى.. الإنجليز بخاصة».

وثمة رواية ثالثة أوردتها الذى كتب مقدمة الطبعة الإسبانية، ولو أنه أخطأ فى تاريخ الوفاة وجعله ١٨٢٢، فهو يصرح بأن «الحكومة

الفرنسية أعطت باديا مكافأة مهمة عن رحلته إلى الهند، ومنحته درجة مرشال في الجيش ومرتبته، وخرج من باريس تحت اسم على عثمان وتوجه إلى دمشق، ويؤكد الفرنسيون أن باشا دمشق قبض مبلغا من أمة كبرى كى يراقب على بك فى دراسته لطريق الهند، فدعاه إلى تناول الطعام، وكان فنجان القهوة الذى شربه آخر ماتناول فى حياته، وظلت أوراقه وحاجياته فى حيازة الباشا، ويعتقد المؤرخ الإسبانى غرسية هرروس أن كاتب المقدمة أخذ هذه المعلومات من زوجة باديا .

وفىما يتصل بقرطاس «الروند» المحمص، والذى اعتقد باديا أنه مسموم، فحصه صيدليان فى باريس، وجاء تقريرهما سلبيا، وأخطرا بذلك وزارتى البحرية والمستعمرات .

لقد عرف على بك كيف يحيط موته، كما أحاط حياته من قبل، بطائفة من الأساطير، وقصة دس السم له يجب أن يُنظر إليها فى ضوء مؤامراته للاستيلاء على عرش المغرب .

حاول القنصل الفرنسى أن يجس النبض لاستعادة أوراق باديا وحاجياته وأمواله، تبعا لأوامر وزير البحرية الجديد البارون بورقال، وعرف الرحالة عندما كان مديرا عاما للمستعمرات، وأما الغنائم التى حازها الحجاج المغاربة فقد أودعت تحت تصرف الأغا، أى رئيسهم، وقد اغتيل هذا فى الطريق— تبعا لرواية فصل فرنسا— فاضطلع بأمرها باشا دمشق، إذ ليس للمسيحيين الحق فى أن يطالبوا بميراث

رجل مسلم ، وكان من الضروري أن تتدخل الحكومة الفرنسية لدى الباب العالي ، ولكن ذلك يعنى إظهار شخصيته المزيفة ، وبداهة لم تفعله . وباع الباشا جانبا من مخلفات على بك ، وحصلت اللادى ستانوب على جانب منها بسعر مرتفع ، وحصل أحد الآباء الرهبان على ساعة توقيت بسعر رخيص للغاية لأن الباشا كان يجهل قيمتها .

لم يُعرف موت على بك إلا بعد مرور شهر طويل من حدوثه ، عرفه القنصل الفرنسى فى دمشق فى نوفمبر ، وأعلم شابوسو السفير الفرنسى فى القسطنطينية فى ١٤ ديسمبر ، ولكن السكرتير العام لوزارة البحرية لم يعلم أسرته بالخبر إلا فى ١٧ مارس ١٨١٩ .

وكان هناك من يظن أن باديا لم يمت ، وإنما هى حيلة منه كى يواصل خططه الخيالية ، وكانت عائلته تميل إلى هذا الرأى ، وقد رفض وزير البحرية أن يسمح لأسرته بأن تقيم على روحه قداسا «لأن التقارير التى لدى الوزارة ليست كافية للموافقة» .



نحن أمام رحلة ذات طابع خاص : رجل أوربى يتخفى وراء شخصية أمير عربى مسلم ، يرتدى زيا شرقيا ، ويقيم الشعائر الإسلامية ، ويكتب باللغة الفرنسية ، ويتوجه إلى قارئ مسيحى ، وكل ذلك يفرض عليه واقعا معيننا : أن يسبح فى بحار عديدة ، وأن يواجه تناقضات عميقة . وقد لاحظ خلال رحلته على أن يظهر فى ثوب

مسلم تقى، ووصف عقيدة المسلمين وكثيرا من طقوسهم، وقدم للجمهور الأوربي لوحة مفصلة عن حياتهم الاجتماعية والدينية، وأخذ يؤكد، ربما ليشى بشيء لا يستطيع التصريح به، على أن الإسلام لا يعرف النظام الكنسى ولا الرهينة، ولا الطبقة الوسيطة بين العبد وخالقه، والناس جميعا سواسيه أمام الله، فليست هناك طبقة متميزة، وأحيانا يترك الحماسة تغزوه، انطلاقا مع الدور الذى يمثله، فتفيض مشاعره، وتتجاوز حدود ما هو تقليدى، كتب عن الحج يقول:

«على جبل عرفات فحسب يمكن أن تصور فكرة المشهد العظيم الذى يقدمه الحج للمسلمين: جماهير غفيرة من كل الشعوب والأمم والألوان، جاءوا من أقصى أنحاء المعمورة، عبر آلاف المخاطر، ومتاعب ومعاناة لاحد لها، لكى يعبدوا الله الواحد معا: سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى الحبشى أو الزنجى من غينيا، والهندي والفارسي يتآخيان مع البربرى والمغربى، يتلاقون جميعا أخوة، أو أفرادا من العائلة نفسها، توحد بينهم رابطة الدين، وتتحدث أغليبتهم، أو على الأقل يتفاهمون، كثيرا أو قليلا، باللغة نفسها، وهى اللغة العربية المقدسة، وليست هناك عبادة مثل الحج تقدم للحواس مشهدا أكثر روعة، وأقوى تأثيرا، وأسمى جلالاً».

ولكنه فى فقرات أخرى ينسى دوره فقيها عالما، ويعود أوربيا متحررا، فهو يحمل بقوة على الأولياء فى المغرب، وامتيازاتهم الدينية، وأنهم يتلقون المكانة وراثه، وتمتعهم إلى أقصى حد بملذات

الدنيا، حتى أن سيدى العربى كان يملك ثمانى عشرة جارية سوداء، ويورد حوارا جرى بينه وبين فقيه وقور فى طنجة، يرى فيه هذا مقتنعا أن بسطاء الفكر فى هذا العالم جاءوا لخدمة الأذكىاء، ويصف التعليم فى أحد كتاتيب مدينة فاس، وقسوة الفقيه، وصرخ الأطفال يستغيثون رهبة ويطلبون الرحمة، ويرد الصحة القوية، وتدفق الدم فى وجوه اليونانيين فى هوربا، إلى كمية النيذ الكبيرة التى يشرّبونها. وأشار إلى مستوى اليهود المنحط فى حميم «الملاححة» فى الرباط، وأن أى واحد منهم، مهما كان غنيا، لا يستطيع أن يمرّ بمسلم وهو على ظهر دابته.

وعلى بك فى روايته للأحداث أقرب إلى رحالة المغرب فى العصر الوسيط منه إلى الرحالة الأوربيين المحدثين، فهو يلتقى مع ابن بطوطة، كما لاحظ بحق كل من سيرافين فانخول وفيدريكو أريوس فى مقدمتها لترجمة رحلة ابن بطوطة إلى الإسبانية وتمت من أعوام قليلة، فى أن كلاً منها شحيح للغاية فى المعلومات التى يقدمها عن شخصه وحياته الخاصة، ربما لأنها يهدفان أن يقدمتا إلى القارئ «العادات الطارئة، والأحداث الرائعة، والوقائع الهامة»، التى تعلق من قدره كاتبها، وكلاهما - ابن بطوطة وعلى بك - يقف طويلا عند القضايا التى يجهلها قارؤه، فتجذبه غرابتها، تاركاً الحديث عن شخصه ومشاعره جانبا، وهى خاصية تفرض على القارئ أن يكون إيجابيا إزاء ما يقرأ، يقظا وله موقف، لكى يكون رأيه الذاتى والأخلاقى.

ومثل ابن بطوطة؛ وبعض الرحالة الآخرين، لا يميل على بك من الحديث عن مقابلاته مع الملوك والباشوات والأشراف وكبار العلماء الذين التقى بهم وأهميتهم، والاحترامات التي قوبل بها، والهدايا التي قدمت إليه، والابتهاج الذي صحبه قادما أو راحلا، ويفضح المجال لتفصيلات مملّة، ومبالغ فيها أحيانا. فهداياها لعلية القوم، وحواره مع القواد والأشراف المغاربة، جعله موضع الرعاية من الجميع، وأعطاه تميزا واضحا على كل الأجانب، فله حق الجلوس إلى جوار السلطان في جلساته الخاصة، وأن يستعمل المظلة، وهي رمز السيادة، في الحفلات، وفي فاس لفت البرنس الذي أهداه إليه هولاي سليمان أنظار الناس، فهم يتجهون إليه احتراما ويقبلونه في كتفيه، وأصبح اسمه وملابسه يجرى على كل فم، وذاعت شهرته عالمًا، وتدخله في قضايا البلاط جعل المعجبين به يقبلون يده، ويأخذونه بالأحضان، ويعلنون أنه أعلم الرجال، وهي مظاهر لم تفارقه - فبا يقول - حتى في ساعات الخطر، عندما حملته المركب إلى طرابلس الغرب، وأوشكت أن يبتلعها اليم، فقد لجأ إليه القبطان والبحارة والركاب عندما علموا أنه قادر على إنقاذهم بدعواته وعلمه.

ولحظ أن الناس يحترمون طائر اللقلق والسحفاة، وقالت له عجوز مراكشية تحترف السحر إن اللقلق كائن إنسانى من جزر بعيدة، ولكى يستطيع الرحلة ويزور أمكنة أخرى اتخذ شكل هذا الطائر المهاجر، ولكنه يعود في كل عام إلى بلاده، وهناك يتردد حالته

الأصلية . ووصف حفلات الإعذار والمولد النبوى والجنائز والحمامات ، ولا تختلف الآن كثيرا عما كانت عليه فى القرن الماضى ، أما حفلات الزواج فقد تطورت بعض الشيء .

ونظرة باديا إلى المجتمع المغربى فى تلك الأيام جديرة بالتأمل ، وأول ما استرعى انتباهه الفقر والبطالة ، رغم ثروات البلد الطبيعية الهائلة ، فهم لا يعرفون ، أو لا يريدون ، استغلالها . ويلبسون أسمالا بالية ، وينامون على الأرض ، وتراهم فى الشارع فى أى ساعة من النهار يسرون بلاغاية ، أو يجلسون جماعات فى الأمكنة ، يتبادلون أحاديث تافهة ، ولا يتعبون منها ، رجالا ونساء ، أغنياء وفقراء ، ويعيشون فى جهالة قاتمة ، وبخاصة فيما يتصل بالساء والكواكب ، وجهلهم الكامل بعلوم الطبيعة والفلك جعلته يلعب بينهم عالما على تواضع معارفه ، وقد أذهلتهم العدد التى يحملها ، لأنهم كانوا يرونها للمرة الأولى .

وهو يخلط بين الملاحظات العلمية والتقارير السياسية ، ربما استجابة لمهمته التجسسية التى عهد بها إليه جودوى ، فيذكر أن المغاربة يجهلون الخدمة العسكرية ، وتعوزهم الأسلحة والمعدات الحديثة ، وعادة يترك الجيش مراكز دفاعه وبطارياته بلا حراسة ، ومدينة الساورة لا يمكن أن تقاوم أى حصار لأن الماء ينقصها ، والقوات النظامية وغير النظامية تتميز بإهمالها وعدم تدريبها ، ويتولى الجنود حراسة المواقع جالسين وأحيانا من غير سلاح ، والبلد تحتضر ، والناس

كثيرو الشكوى، وهو طابع المرء الذى يعرف أنه يجب أن يكون حرا ولكنه مع ذلك يخضع لأشد ألوان الطغيان مهيبة.

ووصف مدينة مراکش، أطلالها ومقابرها الفسيحة وقنوات المياه المهجورة، وأن كثيرا من العمالات تعيش بلاباشا ولا قائد، ولا تدفع أية ضرائب، وتتجاهل السلطان واقعا، ويحكمها المرابطون، وتمتع بنوع من الحكم الذاتى، ويدرك الفرق بين بلاد المخزن وهى التى تخضع للإدارة المركزية والسلطان، والبلاد السائبة، بمقاطعاتها المختلفة، وتتبع الزوايا ورؤساء المرابطين. والدولة فوضى بسبب نمو الطوائف، والصراع الداخلى بينها، والحرية المطلقة للأغنياء والمغامرين، تقابلها بظالة الضعفاء وبؤسهم، وأدى عدم تنظيم وراثه العرش إلى صراع دموى بين الأخوة والأقرباء، فكل أمير طامع فيه، ويسلح أتباعه للدفاع عن حقه، وموت سلطان مغربى وتولية أمير جديد، تستلزم عادة موت مئة ألف مغربى.



عندما اتجه باديا إلى الشرق تحرر من الاهتمام الأكبر بالسياسة ومؤامرات القصور، والمهمة التى كلفه بها جودوى فى المغرب، وألقى بكل ثقله إلى جانب الملاحظات العلمية والأنثروبولوجية والاجتماعية، مقدما للقارئ سلسلة من الأحداث التاريخية، والعادات والتقاليد فى الشعوب التى زارها، يوضحها برسوم من قلمه، ذات

أهمية كبيرة فقد نسخ للمرة الأولى، وفي دقة متناهية، الآثار الإسلامية في مكة وأحاء أخرى من العالم العربي.

في طرابلس الغرب شهد الصراع الدموي الذي انفجر بين العمالات التي تخضع للسيادة العثمانية نظريا، واستتج منها أن هذا الموقف لا يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية، وأن الفوضى السائدة والحروب الأهلية سوف تودي بالقوة العثمانية.

وفي القاهرة أقام ثلاثة أسابيع نزل خلالها في بيت الشيخ المثلوثي شيخ رواق المغاربة وإمام الجامع الأزهر، ووجد في مصر جالية مغربية كبيرة، على رأسها مولاي سلامة شقيق السلطان، وكان لاجئا في مصر، وتعرف إلى كبار علماء الأزهر وشيوخه والزعماء الشعبيين: السيد عمر مكرم شيخ شيوخ القاهرة ونقيب الأشراف، «وغالبا ما كان يلعب دور أمير مستقل بذاته» والشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر ورئيس العلماء، والشيخ الأمير مدير صندوق الأزهر وأمينه، والرئيس الثاني للعلماء، والشيخ الساداتى شيخ الطريقة الوفائية، والشيخ البكرى شيخ الطريقة البكرية، والمهدى، وسليمان الفيومى، والدواخلى، والسيد عبد الرحمن الجبرتي والفلكي الأول في مصر، والعروسي والصاوي، وهذان يتمتعان باحترام كبير، تكريما لما كان يتمتع به أبواهما من قبل، والسيد المحروفي شيخ التجار وصاحب النفوذ الكبير، ونائبه محمد حسن.

وقد وصف لنا العناصر التي رآها في القاهرة، الأرنؤوط والماليك والألبان، والفوضى السياسية الضاربة أطنابها، فلم يكن محمد على قد تولى الحكم بعد، والكل يسرقون الشعب، والخليفة لا يملك وسيلة لإخضاع مصر لحكمه، فاكتفى بالضرائب التي يرسلها إليه الباشا، وشهد هجوم الإنجليز على رشيد والإسكندرية وهزيمتهم، «وامتلأت القاهرة بالأسرى الإنجليز وكانوا تعساء للغاية» على حد تعبيره.

وفى وصف القاهرة حاول أن يصحح الأخطاء التي وقع فيها كثير من الرحالة الأوربيين حين يصفون «شوارع القاهرة بأنها فى منتهى القذارة وكآبة المنظر، لكنى استطع أن أؤكد أنه توجد مدن قليلة فى أوربا ذات شوارع نظيفة جدا كالقاهرة، فالشوارع ممهدة، أشبه بطريق عُبْد بعد رشه بالماء، كطرق أوربا الواسعة، وإذا كان ثمة شوارع ضيقة فهناك أخرى واسعة، ولو أنها كلها تبدو أضيق مماهى عليه فى الحقيقة». و«إذا نحينا القول بأن شوارع القاهرة ذات مظهر حزين، فإن العدد الهائل من الحوانيت والمصانع، وجموع الدهماء المارة، يعطى على الدوام مناظر متغيرة فى كل لحظة، الشىء الذى وجدته بهجا وممتعا، كما هو الحال فى مدن أوربا الكبرى، أما الربض الذى يسكنه الإفرنج أو الأوربيون، والمتزوى بعيدا عن المركز التجارى الرئيسى فى المدينة، فهو مصدر ما ذكره الرحالة الأوربيون فى أغلب الظن».

كما وصف مناخ القاهرة، ومعالمها البارزة: مسجدى الحسين والسيدة زينب وجامع السلطان حسن، وكسوة الكعبة، ومشفى قلاوون والقلعة والأهرام وأبا الهول والجيزة والروضة والمقياس ومصر القديمة والأديرة، وبولاق، وأطنب فى وصف الجامع الأزهر، وحوله يعيش كبار شيوخ القاهرة، وهو مقصد المغاربة الذين يؤمنون للصلاة، ويفضلونه على غيره من المساجد، وفيه يجتمع القاضى ومشاوروه، ويلقى كبار العلماء دروسهم، منقسمين إلى حلقات، كل واحدة تتجمع فى محيط صغير، وتشغل الحلقات كلها امتداد المسجد الواسع.

وربما كانت الصفحات التى خص بها الحج والجزيرة العربية هى أكثر صفحات الكتاب إثارة، وهو أول رحالة أوروبى زار الأماكن الإسلامية المقدسة بنفسه، فى ثوب مسلم تقى، لأن دخولها محظور على غير المسلمين، وجاءت زيارته شاهد صدق على شجاعته وعزيمته ورغبته فى أن يذهب مع المعرفة إلى آخر مدى لها. وعلى النقيض من رحلته إلى المغرب، لم تكن رحلته إلى مكة ذات أغراض سياسية خفية أو أهواء تبشيرية، وإنما تدخل فيما نسميه اليوم «أنثروبولوجى»، ودون أن نتوقف عند وصفه للطقوس والاحتفالات الإسلامية، والتى أكملها وصحتها فيما بعد الرحالة السويسرى بورخارت، والإنجليزى بورتون، سوف نكتفى بما أورده عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مكة، والإصلاح الدينى الذى جاء به الوهابيون.

لاحظ على بك أن مكة تقع وسط الصحراء، بعيدا عن الطرق الصحراوية، فأرغمها ذلك منذ أزمان سحيقة على أن تفرض نفسها بقوة العقيدة الدينية، وأن تستغل الفوائد المادية التي تأتي من وراء هذه، كما يحدث لروما في إيطاليا، أو شنت ياقب في إسبانيا في العصور الوسطى. وأهلها يعيشون من التقوى، والصدقات التي تأتيهم من بعيد، والأموال يحصلون عليها مطوقين، وأصحاب فنادق وخانات، خلال أشهر الحج، مما يسمح لهم بأن يعيشوا منها بقية العام عليها، وبدون هذه الزعامة الدينية تتحول مكة في زمن قليل خرائب وأنقاضا ودورا مهجورة، أما معها فتنتعش التجارة، ويؤجر السكان خدماتهم للحجاج، وهدايا هؤلاء وصدقاتهم تكفي من يقومون على خدمة المساجد والأمكنة المقدسة.

التشدد الإسلامي الذي يدعو إليه محمد بن عبد الوهاب وأتباعه قضى على الزنادقة والسحرة والمهرجانات الدينية، وكانت تهم ماديا في رفاية سكان مكة والمدينة، والوهابيون لا يرفضون استخدام المسبحة والتدخين وزيارة الأولياء فحسب، وإنما هدموا المقابر والأضرحة والمساجد التي أقيمت تشريفا لهم وإنما يمنعون أيضا تقديس شخص النبي، وحتى منعوا الحج إلى قبره، وأنيحت الفرصة لعلى بك ليرى ذلك بنفسه، ويعترف بأن المكان الذي نزلت فيه قافلته أغارت عليه شرذمة من الرجال، حليقي الرعوس، شبه عراة، مسلحين حتى أسنانهم، فامتلا رعبا، ولكن ما إن تعرف عليهم حتى اكتشف فيهم

مجموعة من الفضائل والصفات الطيبة، كالنبيل وإنكار الذات، أعظم مما وجد عند بقية العرب، وهم أوفياء لرؤسائهم، يتحملون كل ألوان المعاناة، ويتابعون قادتهم ولو لنهاية العالم، لا يتراجعون أمام أى خطر أو صعوبة.

ولكنه يرى بعد أن تأمل مواقفهم وعقيدتهم جيداً، أن مثلهم الأعلى الدينى والاجتماعى سوف يجد معارضة قوية تحول دون انتشاره فى المناطق الأكثر غنى وتقدماً، لتشدده وصرامته، واصطدامه مع العادات التى درجت عليها الأمم الإسلامية الأخرى، ويقول بالنص: «إذ لم يخفف الوهابيون قليلاً من شدتهم فى المبادئ التى يؤمنون بها، فيبدو لى أن من المستحيل أن تنتشر الوهابية فى بلاد أخرى أبعد من هذه الصحراء».

وتكتسى نظرتة إلى فلسطين أهمية بالغة، لأنها تناقض سلسلة الأساطير والخرافات التى شاعت وتكثرت، والتى اكتظت بها الصحف والكتب، وملأ بها مؤسسو الصهيونية العالم بأجمعه، تتحدث عن أسطورة الصحراء التى أحالوها جنة، بالمستعمرات التى أقاموها، والمزارع التى أنشأوها، والاضطهاد الذى تلاقيه الأقلية اليهودية والمسيحية من الفلسطينيين، وشهادته وهى محايدة وموضوعية تكذب كل هذه الدعاوى. يقول: كل المنطقة التى رأيتها فى فلسطين، من جنين إلى يافا، رائعة الحضرة، ومكونة من قرى مستديرة، وملتوية، وأرض خصبة تكاد تشبه دلتا وادى النيل فى مصر، وهى غنية بالمزارع، وجميلة جداً.

«وفى فلسطين يسود أكمل انجم عرفته بين كل الأديان، وتبدو تقاليد السكان العربية أكثر تقدما بالنسبة لجيرانهم، فالنساء المسلمات يمشين مكشوفات الوجه، والاحتفالات والمهرجانات الإسلامية مفتوحة للرجال والنساء، وأصحاب العقائد الأخرى أحرار فى الاشتراك فيها، والمسلمون فى الناصرة يذهبون فى مهرجان دينى كى يقدموا أطفالهم لمريم العذراء، ويحلقون شعرهم للمرة الأولى فى كنيسها، والأوروبيون فى عكا يتمتعون بحرية كاملة، ويجدون التقدير من المسلمين. وكبير وزراء الباشا يهودى لأنه يتمتع بمواهب كثيرة».

«وفى القدس يعيش أتباع المسيح مختلفين بالمسلمين، دون أن تستطيع التمييز بين الاثنين، وانتج هذا الاختلاط حرية أكثر اتساعا مما هى عليه فى أى بلد إسلامى آخر».

وقد أمضى على بك أعوام رحلته عفاً، غير مهمتم بما هو تحت البطن كما يقول المثل الفرنسى، على النقيض من ابن بطوطة، والذى كان يتسرى فى كل بلد يهبطه، فإذا لم يتيسر له ذلك تزوج، ويحكى لنا فى ظرف وخفة دم، أنه نزل إحدى المدن ليلاً، ثم استيقظ مبكراً وصلى الفجر، ومع النهار زار القاضى والإمام وحاكم المدينة، وبعضاً من أعيانها، وتناول الغذاء، ويكمل فى نبذة متعجبة: إنه صلى العصر ولم يتأهل بعد!. وعلى النقيض أيضاً من الرحالة الأوروبيين المحدثين الآخرين أمثال بورتون وفلووير وغيرهما، ممن يعتبرون رواد الانتروبولوجى الجنسى الحديث، ولهذا ارتعب على بك من بعض

العادات المتحررة فى البلاد الإسلامية، فارتاع من طريقة الاختلاط بين الجنسين فى فلسطين، وكره بعنف الدور الذى يقوم به السود فى المغرب حين يمارسون الحب، المغاربة مع السواوات والسود مع المغربيات، ولاحظ أن حرية المرأة فى القسطنطينية تسهل لها القجور كثيرا، وانتقد بشدة مارآه فى المشاهد العامة من هذه المظاهر.

لايكفى أن نلقى على رحلة باديا دومينجو نظرة خاطفة، أو نعرف بها تعريفا عاما، إنها فى حاجة إلى ترجمة كاملة، والكثير منها يساعدنا على فهم حاضرنا، وتفسير شىء من اتجاهاته، ويفتح أعيننا جيدا على المخاطر التى تحيط بنا، وأنها ليست قديمة، ولن تتوقف أيضاً!.